الملحق الاول

المجتمع المصـري

أثناء الاحتلال الفرنسي

أشرنا في الفصل الأول من هذا الجزء الى فتح نابليون لمصر في أواخر القرن الثامن عشر وما كان له من أهمية كبيرة في تاريخ الدولة العثمانية والبلاد العربية. والواقع أن هذا الحادث لا تقتصر أهميته على الناحية التاريخية فقط بل كانت له أهمية أخرى من الناحية الاجتماعية . فهو يعطينا دروساً ذات قيمة علمية لا يستهان بها حيث يصور لنا ماذا يحدث بين الناس عند احتكاك حضارتين من مستويين متفاوتين .

كان المجتمع المصري عند فتح نابليون له في مستوى حضاري منخفض ، وجاء الفرنسيون اليه وهم يحملون حضارة من مستوى أرفع نسبياً . وبذا لم يكن الصراع بين الفرنسيين والمصريين عسكرياً فقط بل كان اجتماعياً أيضاً . وهو يشسبه من بعض الوجوه ما حدث في العراق خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها عندما احتلت بريطانيا العراق وبدأ الصراع بينهـا وبين العراقيين .

أظن ان القاريء العراقي سينتفع من هذا الملحق قليلاً أو كثيراً ، فسيرى فيه أحداثاً مشابهة للاحداث التي وقعت في العراق اثناء الاحتلال البريطاني . وربما استطاع القاريء أن يخرج من هذه المقارنة بعبر اجتماعية تساعده على فهم الانسان والمجتمع على وجه من الوجوه .

قدوم الاسطول الفرنسي :

في ١٩ أيار ١٧٩٨م تحرك اسطول فرنسي ضخم من ميناء طولون

متوجهاً نحو مصر لغرض فتحها بقيادة نابليون بونابرت • وكان نابليون يومذاك في التاسعة والعشرين من عمره قصير القامة شاحب اللون رقيق البدن ليس له مهابة تؤثر في الناظر اليه غير أنه كان يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة وعبقرية عسكرية لا تضاهى •

وعند اقتراب الاسطول من الساحل المصري خطب نابليون في جنوده يذكرهم بحملته السابقة في ايطاليا فقال : « ايها الضباط والجنود ، لقد حضرت قبل عامين لاتولى قيادتكم • وكنتم يومها على ساحل ليجوريا تعانون الفاقة والعوز في كل شيء ، حتى لقد بعتم ساعاتكم لتشتروا ما تحتاجون اليه • وقد وعدتكم أن أقضي على هذا الحرمان ، وقدتكم الى ايطاليا ، حيث أُعطيتم كل شيء بسخاء ، فهل بررت بوعدي لكم ؟ » فأجابوه بصوت واحد : نعم ! فواصل خطابه قائلاً : « حسناً ، دعوني أخبركم أنكم لم تفعلوا بعد للوطن ، ولا فعل الوطن لكم ، ما فيه الكفاية • واني الآن قائدكم الى بلد تفوقون فيه بأعمالكم المقبلة ما قمتم به الى الآن من أعمال تدهش المعجبين بكم ، وستؤدون للجمهورية خدمات يحق لها أن تنتظرها من جيش لا يقهر • واني أعد كل جندي أن يحصل عند عودته لفرنسا على ما يكفيه لشراء ستة أفدنة من الأرض » • وبعد أن انتهى نابليون من خطابه ارتفعت الهتافات من الجنود : « تحيا الجمهورية الخالدة » وتلتها أناشيد وطنية •

لقد كان الجنود الفرنسيون في تلك الحملة كغيرهم من جنود العالم الذين يذهبون للفتح يدفعهم دافعان : أحدهما مثالي يظهر في هتافاتهم وأناشيدهم ، وآخر واقعي يكمن في أعماق نفوسهم اذ هم يطمعون أن يشبعوا به رغباتهم المكبوتة • يقول المؤرخ هيرولد : ان الجنود الفرنسيين كانوا ، باستثناء عدد قليل منهم ، يشوب وطنيتهم ذكرى الغنائم والطعام الكثير والخمر والنساء ، وتوقع الظفر بهذا كله في وفرة تشرح الصدور ،

ولا ريب اذن في أن وعد بونابرت لرجاله بالغنيمة والمكافآت المادية أثار حماستهم أكثر من أي شيء آخر في خطابه[1] •

الحالة في مصر :

في الأول من تموز وصل الاسطول الفرنسي الى مقربة من الاسكندرية فكان منظره في البحر مذهلاً اذ كان يحتوى على زهاء أربعمائة سفينة ــ بين بارجة وفرقاطة وناقلة ــ فأثار رعباً في أهل الاسكندرية اذ هم لم يشاهدوا من قبل مثل هذا المنظر • وقد وصف الحالة مؤرخ شامي اسمه نقولا الترك فقال : ان المشاهدين من البر لا ينظرون بحراً بل سماء ومراكب « فوقع عليهم خوف عظيم ووهم جسيم ، شيء لا يُنقدّر »[2] •

كان المماليك هم الحكام الفعليين في مصر في تلك الآونة ، وكان كبيرهم اسمه مراد بك ، فلما وصل الخبر اليهم بوصول الاسطول الفرنسي الى الاسكندرية أظهروا عدم الاكتراث اعتماداً على قوتهم وقالوا : « اذا جاءت جميع الافرنج لا يقفون في مقابلتهم وانهم يحطمونهم بسنابك الخيول ، ويحصدون رؤسهم ببوارق السيوف »[3] • ويروى عن مراد بك نفسه أنه قال مفاخراً : انه سيشرح الافرنج كما يشرح التسمّام[4] •

احتل نابليون الاسكندرية من غير مقاومة تذكر ، ثم توجه نحو فتح القاهرة • ويصف المؤرخ المصري عبدالرحمن الجبرتي حالة القاهرة عند وصول الخبر اليها ــ وكان شاهد عيان فيها ــ فقال : « وفي يوم الثلاثاء

---

(١) ج • كرستوفر هيرولد (بونابرت في مصر) ترجمة فؤاد اندراوس ــ القاهرة ١٩٦٧ ــ ص١٠ ــ ١١ •

(٢) المصدر السابق ــ ص٦ •

(٣) عبدالرحمن حسن الجبرتي (يوميات الجبرتي) القاهرة بدون تاريخ ــ ج١ ص٣٣ •

(٤) ج•كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٢٨ •

نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس ، وصاروا يكررون المناداة كل يوم ، فأغلق الناس الدكاكين والأسواق ، وخرج الجميع لبر بولاق ، فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون خيماً ، أو يجلسون في مكان حرب أو مسجد ، ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التي جمعوها من بعضهم ، وبعض الناس يتطوع بالانفاق على البعض الآخر ، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك ، بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم ببذل أموالهم ، فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشيء يملكه ، ولكن لم يساعدهم الدهر ، وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والاعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ، ويذكرون بأذكار مختلفة ، وصعد نقيب الأشراف السيد عمر للقلعة فأنزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة البيرق النبوي فنشره من القلعة الى أن وصل به الى بولاق وهو راكب ومعه ألوف من العامة بالنبابيت والعصي يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح وبصحبته طبول وزمور وغير ذلك وأما مصر فانها بقيت خالية الطرق لا تكاد تجد بها أحداً سوى النساء في البيوت والصغار وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحركة فانهم مستترون مع النساء في بيوتهم . والاسواق مجفرة ، والطرق معفرة ، من عدم الكنس والرش . وغلا سعر البارود والرصاص بحيث بيع رطل البارود بستين نصفاً ، والرصاص بتسعين . وغلا السلاح وقل ، وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصي ، ومكث المشايخ والعلماء بزاوية علي بك ببولاق يدعون ويبتهلون الى الله بالنصر . وأقام غيرهم من الرعايا ، البعض بالبيوت ، والبعض بالزوايا ، والبعض في الخيام . ومحصل الأمر أن جميع ما بمصر من الرجال تحول لبولاق وأقام بها ... وفي كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون قوت يوم بيوم لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد . وتنقطع

الطرق ويعدو الناس بعضهم بعضاً ، وينهب بعضهم بعضاً ، وكذلك العرب تغير على الأطراف والنواحي ، وصار قطر مصر من أوله الى آخره في قتل ونهب ، واخافة طريق ، وقيام شـر ، واغارة عـلى أموال الناس ، وافسـاد مزارع ، وغير ذلك من أنواع الفساد التي لا تحصى . وطلب أمراء مصر الافرنج الذين هم تجار بمصر فحبس بعضهم بالقلعة ، وبعضهم بأماكن الأمراء ، وصاروا يفتشـون في محلات الافرنج عـلى الاسـلحة وغيرها ، وكذلك يفتشـون بيوت النصـارى الشـوام والأقباط والأروام والكنائس والأديرة على الأسلحة ، والعامة لا ترضى الا ان يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم الحكام عنهم ، ولولا ذلك المنع لقتلهم العامة في وقت الفتنة » .

ويقول الجبرتي أيضاً : ان العلماء كانوا أثناء ذلك يجتمعون « في الأزهر كل يوم لقراءة البخاري وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والسعدية والرفاعية وغيرهم من طوائف الفقراء وأرباب الأشاير كل يوم يذهبون للأزهر فيجلسون للأذكار ، وتجتمع أطفال الكتاتيب للدعاء وتلاوة اسمه تعالى لطيف ... »[1] .

منشور نابليون :

لم تكد الاسـكندرية تسـقط في يد نابليون حتى بدأت تظهر عـلى جدرانها أوراق مطبوعة تحتوى على خطاب من نابليون موجه الى الشعب المصري باللغات العربية والتركية والفرنسية . وفيما يلي النص العربي لهذا المنشور وهو كما يلاحظ القاريء مكتوب بلهجة عامية واطئة :

« بسم الله الرحمن الرحيم لا إله الا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه . من طرف الفرنسـاوية المبني على أسـاس الحرية والتسـوية ، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته ، يعرف أهالي مصر

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٤٦ ـ ٥٠ .

جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلّطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع البلص والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون في الاقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها • فأما ربّ العالمين القادر على كل شيء فأنه قد حكم على انقضاء دولتهم • يا أيها المصريون قد قيل لكم انني ما نزلت بهذا الطرف الاّ بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم الاّ لأخلص حقكم من يد الظالمين وانني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضاً لهم ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فان كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبّرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها • وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الاّ الظلم والطمع من المماليك • أيها المشايخ والقضاة والائمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالليرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين • ومع ذلك

الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه • ومع ذلك ان المماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا الا لطمع أنفسهم • طوبى ثم طوبى لاهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم • طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر ••• »[1] •

لقد اعترف نابليون في اواخر أيامه عندما جاء ذكر هذا المنشور فوصفه : أنه كان قطعة من الدجل ولكنه دجل من أعلى طراز[2] • ومهما يكن الحال فقد أمر نابليون بطبع آلاف النسخ من المنشور ونشره في أنحاء مصر ، واستخدم في سبيل ذلك جواسيس من مالطة يتكلمون اللغة العربية بلهجة المغاربة ، فصار هؤلاء يخالطون الجموع المحتشدة في بولاق ويوسوسون لهم ويثبّطون من عزائمهم[3] • والمظنون أن هؤلاء الجواسيس كان لهم أثر لا يستهان به في الجماهير •

معركة الاهرام :

كان الفرق بين المماليك والفرنسيين في القتال كبيراً يلفت النظر ، فقد كان المماليك رجالاً اشداء يملكون من صفات الشجاعة والبسالة والقوة البدنية شيئاً كثيراً ولكنهم كانوا يقاتلون على طريقة أبي زيد الهلالي • أما الفرنسيون فكانوا قد جاؤوا معهم بأحدث ما وصل اليه فن الحرب من علم وتنظيم وتدريب ، وكان قائدهم نابليون كما أشرنا اليه من

---

(١) ج٠كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٩٦ ـ ٩٨ •

(٢) المصدر السابق ـ ص١٩ •

(٣) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٣٧ •

قبل يملك عبقرية عسكرية لا تضاهى ، وقد عده بعض المؤرخين أعظم قائد عسكري أنجبته العصور الحديثة .

وصف ضابط فرنسي فرسان المماليك أثناء تهيؤهم لخوض احدى المعارك فقال : « كانت الصحراء تمتد الى الخلف ومن فوقها السماء الزرقاء ، وأمامنا الخيول العربية الجميلة المطهمة تنفخ وتصهل وتطفر في رشاقة وخفة تحت راكبيها من المقاتلين المدججين بسلاح يخطف بريقه الأبصار ، مرصع بالذهب والجواهر الكريمة . أما ملابسهم فزاهية الألوان ، وأما عمائمهم فيعلوها ريش مالك الحزين ، وبعضهم يلبسون الخوذات المذهبة . وأما سلاحهم فالسيوف والرماح والصوالج والحراب والبنادق والبلط والخناجر ،ويحمل كل منهم ثلاثة أزواج من الطبنجات ... » ويضيف المؤرخ هيرولد الى هذا الوصف قائلاً : « كل مملوك كان (جبخانة) تمتطي جواداً ، فهذا الفارس الذي يركب على الطريقة القوقازية يطلق أولاً قربينته ثم يدسها تحت فخذه ، وبعدها يطلق طبنجاته ويقذف بها من فوق كتفه ليلتقطها خدمه بعد حين ، ثم يقذف الجريد الفتاك ، وهو سهام طولها أربع أقدام مصنوعة من جريد النخل بعد شقه وثقفه ، وأخيراً يهاجم العدو بسيفه الأحدب ، وقد يحمل سيفين في آن واحد ويضرب بهما ولجام الجواد بين نواجذه . وقد علمته سنوات طويلة من المرانة أن يفصل الرأس عن الجسد بضربة عكسية لا ثاني لها ... »[1] .

كان المماليك قد حشدوا جموعهم للدفاع عن القاهرة في جبهتين : الأولى في قرية بولاق[2] على الضفة الشرقية من النيل بقيادة ابراهيم بك ،

---

(١) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٢٧ .

(٢) لم تكن بولاق يومذاك متصلة بمدينة القاهرة كما هي عليه الآن، بل كان يفصل بينهما سهل مترب خال من العمران . فقد كانت مساكن القاهرة تنتهي عند بركة الازبكية التي هي الآن حديقة عامة ، وكانت قد بنيت على ضفاف البركة قصور باذخة لبعض أمراء المماليك .

والاخرى في قرية أمبابة على الضفة المقابلة من النيل بقيادة مراد بك •
ويعتقد الخبراء العسكريون أن مراد بك ارتكب خطأً حربياً جسيماً بمقابلة الفرنسيين عند أمبابة ، اذ كان الواجب عليه أن يجمع قواته الى قوات ابراهيم بك في بولاق ويترك للفرنسيين مهمة عبور النيل من أجل دخول القاهرة ، وهي مهمة لا تخلو من خطر على الجيش الفرنسي المهاجم •
ويقال ان النفرة والتنافس والتحاسد بين القائدين كانت سبباً في هذه الخطة الخاطئة(١) •

وقعت المعركة الفاصلة في امبابة في ٢١ تموز ١٧٩٨م ، وقد أطلق المؤرخون على تلك المعركة اسم « معركة الاهرام » لأن الأهرام كانت تلوح للناظر من ساحة القتال على الرغم من أنها كانت على بعد عشرة أميال منها •
وقد خطب نابليون في جنوده عند بدء المعركة قائلاً لهم : « أيها الجنود ان أربعين قرناً تنظر اليكم من قمة هذه الأهرام »(٢) •

أمر نابليون جنوده بأن يكونوا على هيئة مربعات ، وهي خطة أذهلت المماليك • والواقع أن المماليك قاتلوا ببسالة نادرة ، فكانوا يرمون بأنفسهم الى ساحة القتال لا يبالون بالموت ، وأخذ الموت يحصدهم حصداً • وكان أشدهم في ذلك رجل اسمه أيوب بك الدفترار فقد هجم بحصانه على الفرنسيين وهو يصيح فيهم على طريقة أبي زيد الهلالي : « ويلكم يا لئام ، ساقكم الغرور لفتح هذه الثغور ، اليوم نملأ منكم القبور ••• » ، ولكنه سقط قتيلا وداسته الخيل(٣) •

وذكر الجبرتي : أن الجموع الذين كانوا محتشدين في بولاق في الضفة المقابلة من النيل أخذوا يصرخون : يا رب ، يا لطيف يا رجال الله ،

---

(١) عبدالعزيز محمد الشناوي (عمر مكرم ــ بطل المقاومة الشعبية) ــ القاهرة ١٩٦٧ ــ ص٤٠ ــ ٤١ •
(٢) في• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٣٣ •
(٣) المصدر السابق ــ ص١٣٥ •

ونحو ذلك ، وكأنهم كانوا يقاتلون بصياحهم وجلبتهم ، فكان العقلاء منهم يأمرونهم بترك الصياح ويقولون لهم ان الرسول والصحابة انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الأصوات والصراخ والنباح ، فلم يستمع أحد منهم لهذه النصيحة ، ومن يقرأ ومن يسمع[1] .

حاول المماليك الذين كانوا في بولاق أن يعبروا النهر بالسفن لنجدة اخوانهم في أمبابة ، ولكن الهزيمة كانت قد حلت بهؤلاء قبل أن يتمكن أولئك من العبور . وكانت هزيمة شنعاء تشبه أن تكون مجزرة ، وكان منظر جثث الرجال والخيل رهيباً لكثرة ما أريق من دماء في ساحة المعركة، وغرق مئات من المماليك في النيل أو قتلوا بمدافعهم التي صوبها الفرنسيون عليهم .

شيوع الذعر :

بعد أن حلت الهزيمة المنكرة بجيش المماليك في أمبابة فر مراد بك مع من بقي معه من أتباعه نحو الصعيد ، كما فر ابراهيم بك نحو بلاد الشام . وكانوا قبل فرارهم قد أشعلوا النار في السفن التي كانت راسية في النيل وكان عددها يناهز الثلاثمائة . وعندما حل المساء صار أهل القاهرة يشاهدون اللهب المتصاعد من السفن في النهر ، وباتت منائر القاهرة طوال الليل ينعكس ظلها بتأثير أضواء اللهب الآتية من النيل ، كما انعكست الأضواء على جوانب الأهرام البعيدة . وظن الناس أن الافرنج أحرقوا الجيزة وبولاق ، وانتشرت الاشاعة أنهم قادمون نحو القاهرة وأن طلائعهم وصلوا الى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء[2] . ومما زاد في الوضع سوءاً عودة الجموع من بولاق وهم يلطمون وجوههم ويقولون : « يا ويلنا قد وقعنا في أسر الافرنج ! »[3] .

---

(١) المصدر السابق ـ ص١٣٧ .

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٥٣ ـ ٥٤ .

(٣) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٣٨ .

يقول الجبرتي : « ... فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهروب واللحاق بهم ، والحال أن الجميع لا يدرون أي طريق يسلكون ، وأي جهة يذهبون ، وأي محل بـه يستقرون ، فتلاحقوا وتسابقوا ، وخرجوا من كل حدب ينسلون ، وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه وخرج أكثرهم ماشياً أو حاملاً متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ، ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه ، وخرج غالب النساء حاسرات وأطفالهن على أكتافهن يبكين في ظلمة الليل ، واستمروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها ، وأخذ كل انسان ما قدر على حمله من مال ومتاع . فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر عورتـه أو يسد جوعـه ، فكان ما أخذته العرب شيئاً كثيراً يفوت عن الحصر ... وربما قتلوا من قدروا عليه أو دافع عن نفسه ومتاعه ، وعروا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن وفيهم الخوندات والأعيان ، فمنهم من رجع من قريب وهم الذين تأخروا في الخروج وبلغهم ما حصل للسابقين ، ومنهم من جازف متكلا على كثرته وعزوته وخفارته فسلم أو عطب ، وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله ولا سمعنا بما يشابه بعضه في تواريخ المتقدمين ، وما راءٍ كمن سمع »[1] .

ولم تسلم دور المماليك في القاهرة آنذاك من النهب والتخريب ، فقد انتهز الأوباش واللصوص الفرصـة ـ كعادتهم في مثل هـذه الحالة ـ وأخذوا يعيثون فيها كما يشتهون ، حيث انتهبوا ما كان في الدور من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك وباعوه بأبخس الأثمان[2] .

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٥٤ ـ ٥٥ .
(٢) المصدر السابق ـ ج١ ص٥٧ .

الافرنج في القاهرة :

أدرك الناس بعد فوات الأوان أن الخطر الذي كانوا يخشونه لا وجود له ، وأن الفرنسيين لم يعبروا النيل وأنهم لا يزالون في الجانب الآخر منه . فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا ثم اتفقوا على كتابة رسالة الى الافرنج واختاروا لحمل الرسالة رجلاً مغربياً يعرف لغتهم ورجلاً آخر معه . وذهب الرجلان فقابلا نابليون في الجيزة ، فبش نابليون لهما وطمنهما وسألهما : « اين عظماؤكم ومشايخكم ؟ لم تأخروا عن الحضور لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة ؟ » .

وبعد مفاوضات تم تسليم القاهرة لنابليون ، فدخلت طلائع الجيش الفرنسي اليها في ٢٣ تموز . ثم دخل نابليون الى القاهرة في اليوم التالي وكانوا قد أعدوا له قصراً فخماً من قصور المماليك في حي الازبكية ، وكان هذا القصر قد بناه صاحبه حديثاً وبذل في زخرفته وتأثيثه أموالاً عظيمة ثم تركه من غير أن يهنأ به ، وكأنه كان قد بناه من أجل نابليون !

ونصب الفرنسيون جسراً من القوارب على النيل لكي يعبره الجنود ، وكانت القاهرة آنذاك خاوية خالية لا يشاهد في شوارعها غير السارقين المتلصصين ، وغير الكلاب والقطط وبعض العجائز المقنعات . ثم أخذ المارة يتكاثرون وكان أولهم الباعة المتجولون الذين يتجرون في كل سلعة حتى البغايا . ثم أخذ رجال الشرطة يتجولون ليلاً ونهاراً للقضاء على اللصوص والقتلة ، وكان الجلادون يسيرون معهم ، فاذا أمسكوا برجل مشتبه به حكموا عليه بالموت فوراً وسرعان ما يسقط رأسه الى الأرض[1] .

ولم يمض وقت طويل حتى أدرك سكان القاهرة أن الافرنجي على خلاف ما صورته الاشاعات سابقاً من أنه شيطان طول أظافره قدم . والواقع ان الجنود الفرنسيين أخذوا يتبعون مع الأهالي سياسة التحبب والمحاسنة ،

---

(١) ج. كروستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢١٣ ـ ٢١٤ .

وصاروا يضاحكون الباعة ويشترون ما يحتاجون اليه منهم بالثمن الغالي قياساً على أسعار بلادهم ، وكان هذا مصدر دهشة الناس لأنهم كانوا قد اعتادوا في العهود السابقة أن ياخذ الجندي ما يريد دون أن يدفع له ثمناً وربما اعتدى على البائع وضربه علاوة على ذلك •

يقول الجبرتي في معرض حديثه عن سلوك الفرنسيين في أسواق القاهرة : « ثم أن عساكرهم صارت تدخل الى المدينة شيئاً فشيئاً حتى امتلأت منهم الطرقات وسكنوا البيوت وجافت منهم الحارات ، ولكن لم يشوشوا على أحد ، ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها ، وهذه من أعظم المكايد لأجل اضلال عقول العامة ، وانهمكوا على أنواع المأكولات مثل الكلاب السعرانين ففجر السوقه وصغروا الخبز وطحنوه بترابه وباعوا البيضة بنصف فضة بعد أن كانوا يبيعون كل أربع بيضات بنصف ، وفتح الناس عدة دكاكين بجوارهم يبيعون فيها أصناف المأكولات كالفطير والكعك والسمك المقلي واللحوم والفراخ المحمرة وغير ذلك ، وفتح نصارى الأروام عدة دكاكين لبيع المسكرات وعدة خمامير وقهاوي ، وطافت جماعة من النصارى في الاسواق تبيع العرقي كسقاة الماء وصاروا ينادون به في الأسواق بلغتهم وفحش ذلك جداً »[١] •

وكان نابليون قد أصدر في ٢٥ تموز مرسوماً بتشكيل ديوان للحكم مؤلف من أعيان القاهرة وعلمائها ، وكان هذا على حد تعبير الدكتور لويس عوض « أول مجلس للوزراء عرفته مصر »[٢] ، فقد كان في مصر قبل هذا ديوان للحكم ولكن عضويته كانت قاصرة على الاتراك والمماليك أما الآن فقد صار مصرياً خالصاً • ويقول الدكتور عوض في وصف هذا الديوان :

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٥٩ ــ ٦٠ •

(٢) لويس عوض (تاريخ الفكر المصري الحديث ــ الفكر السياسي والاجتماعي) ــ القاهرة بدون تاريخ ــ ص١٩ •

« ولا شك أن هذه الواجهة من الحكم المصري كانت في حقيقتها (وزارة دمى) ، وهي حال كل وزارة من أبناء البلاد في أي بلد تحكمه سلطة عسكرية أجنبية تحتله . ولكن مجلس الوزراء المصري لم يكن مجرداً تماماً من الارادة المستقلة ولا سيما في الأمور التي لا تتعارض مع مصالح الفرنسيين المباشرة وقد كان يباشر اختصاصه المحدد في تعيين الموظفين رغم معارضته الفرنسيين في بعض الاحيان ... »[1] .

نابليون والاسلام :

اتخذ نابليون منذ دخوله مصر سياسة التقرب من المسلمين والتحبب اليهم ، وقد أعلن أنه مسلم في قلبه وأنه سيعتنق الاسلام ، ولبس العمامة والقفطان في أحد الأيام ، وصلى مع المصلين ، وقال لأحد مشايخ الدين : انه ينوى « اقامة حكومة موحدة تقوم على مبادىء القرآن التي هي وحدها المبادىء الحقة القادرة على اسعاد الناس » .

وحاول نابليون أن ينشر بين المصريين اشاعة مفادها أن النبي ظهر له في المنام وقال له : « اجهر بايمانك بأركان ديني لأنه دين الله . ان العرب في انتظار هذه العلامة ، وسأُخضع آسيا كلها لسلطانك » . وتقول الاشاعة ان نابليون التمس من النبي مهلة سنة واحدة ليعدّ فيها جيشه ، فأعطى النبي له المهلة ، وتعهد نابليون بأن يبني مسجداً عظيما وأن جيشه كله سيعتنق الاسلام[2] .

وحين اقترب موعد الاحتفال بالمولد النبوي تساءل نابليون عن سبب امتناع المسلمين عن اقامة شعائر المولد كعادتهم في كل سنة فاعتذر السيد خليل البكري بتعطل الأمور وتوقف الأحوال ، فأمره نابليون باقامة الشعائر

---

(١) لويس عوض (تاريخ الفكر المصري الحديث ـ الخلفية التاريخية) ـ القاهرة بدون تاريخ ـ ص١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٥٠٥ .

ومنحه ثلاثمائة ريال فرنسي ليستعين بها على ذلك ، فأُقيمت الاحتفالات ثلاثة أيام بلياليها ، وشارك الفرنسيون فيها « ولعبوا ودقوا طبولهم، وأحرقوا حراقة في الليل وسواريخ تصعد في الهواء ونفوط »[١] .

وأمر نابليون بأن تقام احتفالات مماثلة في غير القاهرة من المدن ، وأن يشارك القواد الفرنسيون فيها . وكان نابليون قد حضر الوليمة التي أقامها السيد خليل البكري بالمناسبة ، فاستمع الى تلاوة القرآن بخشوع . وعندما قُدّم الطعام وهو عبارة عن تلال من الرز واللحم عليها شحم الضأن قاوم نابليون شعور الغثيان ومدّ يده نحوها آكلاً . ثم وصل الى دار البكري موكب يتقدمه جوق موسيقي عسكري وفيه جميع الضباط يرافقهم حملة المشاعل[٢] .

يمكن القول على أي حال ان هذه المراءاة التي تظاهر بها نابليون لم تؤثر الا في القليل من الناس ، وبقي أكثرهم ولا سيما رجال الدين في شك منه وريبة ، يذكر المؤرخ نقولا الترك أنهم كانوا يقولون : « كل هذا خداع ومخاتلة لبينما يتملك ، وأما هو نصراني ابن نصراني »[٣] .

وكان نابليون يسعى نحو ازالة الريبة من قلوبهم بكل وسيلة ، فكان في احاديثه مع شيوخ الأزهر يحاول أن يقنعهم بأن النبي خصه بعنايته وأن ذلك هو الذي مكّنه من هزيمة المماليك الشجعان ، وأن القرآن تنبأ بذلك في عدة آيات . وفي احدى مناقشاته معهم ذكر لهم أنه يرغب أن يعتنق الاسلام هو وجيشه ولكن الذي يمنعه من ذلك عقبتان : أولاهما مسألة الختان ، والثانية تحريم الخمرة . فكان جوابهم له : أن الختان مستحب وليس واجباً ، أما الخمرة فهي اثم ولكنها لا تجعل شاربها مارقاً عن الاسلام اذ قد يشربها الانسان ويبقى مسلماً[٤] . ثم طال الجدل بينهم ، ولا ندري

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٦٧ .
(٢) ج. كروستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٠٧ - ٢٠٩ .
(٣) المصدر السابق - ص٤٣٨ .
(٤) المصدر السابق - ص٢٥٣ - ٢٥٥ .

على وجه اليقين ما هي النتيجة التي انتهى الجدل اليها •

صدر منذ عهد قريب كتاب صغير لمؤلف باكستاني بعنوان « نابليون المسلم » ، وقد حاول فيه مؤلفه أن يبرهن على أن نابليون اعتنق الاسلام عن اخلاص • وجاء في الكتاب ما يلي ننقله بنصه :

أولاً ـ رب منتقد يقول ان هذا التحول الديني باب من أبواب الاسترضاء ولكن نابليون لم يكن بحاجة الى مثل ذلك وهو القرم العنيد الذي لم تلن له قناة حتى مع أكبر قواده •

ثانياً ـ اذا كان ادعاؤه الاسلام مع استثنائه من شرطي الختان والخمرة بدعة استرضائية فلماذا عمد الى بناء جامع كبير وأباح لجنوده ومقربيه اعتناق الاسلام ؟

ثالثاً ـ ألم يصرح بأن جميع بني الانسان متساوين فما يفضل انسان على آخر الا بالتقوى كأنه استوحى آية القرآن وآمن بها ؟

ثم يختم المؤلف الباكستاني كتابه بعبارة أشار بها الى أن شعر نابليون وأظافره نمت بعد موته ، واعتبر ذلك ظاهرة عجيبة لا سابقة لها في التاريخ وقال : « وليس لها من تفسير الا ما برره الايمان بحلول القوة الالهية جزاء للتقوى ، تغمد الله روح نابليون الكبير برحمته ورضوانه »[1] •

اننا ننقل رأي هذا المؤلف الباكستاني من غير تعليق ، ونترك للقاريء أن يحكم له أو عليه •

جاك عبدالله مينو :

بينما كان نابليون يعلن أنه مسلم في قلبه وأنه سوف يعتنق الاسلام ، كان هناك قائد فرنسي آخر اعتنق الاسلام فعلاً وسمى نفسه « عبدالله مينو »

---

(١) أبو أحمد جل الوحيد (نابليون المسلم) مترجم عن الانكليزية ـ المترجم غير مذكور ـ بيروت ١٩٥٤ ـ ص١٦ ـ ٦١ •

وأخذ يوقع رسائله بهذا الاسم الجديد •

كان هذا القائد يومذاك في الخمسين من عمره يرأس القوة الفرنسية في بلدة رشيد ، وعندما اعتنق الاسلام أخذ يقوم بكل ما يفرضه الاسلام على أتباعه من شعائر وعبادات ، فكان يتلو القرآن ، ويؤدي الصلاة في المسجد في كل جمعة ، ويقيم الصلوات الخمس في تعبّد ظاهر • وتزوج فتاة علوية كان أبوها صاحب حمام في رشيد اسمها « زبيدة » ، وقيل انه تزوجها على الطريقة السائدة في البلاد الاسلامية يومذاك أي أنه عقد عليها قبل أن يراها[1] • غير أنه استطاع أن يحصل على اعفاء من الختان[2] •

أصبح اسلام مينو حكاية غريبة يتناقلها الناس في جميع أنحاء مصر ، وأخذ الجنود الفرنسيون يعلّقون عليها تعليقات شديدة البذاءة • أما نابليون فأدرك أن هذا الحدث قد أضفى شيئاً من المعقولية على وعده بتحول الجيش الفرنسي كله الى الاسلام ، وكتب الى مينو يهنؤه على « تضحيته » في سبيل القضية « الوطنية »[3] •

وقد اختلفت الآراء في تعليل اسلام مينو ، فمن قائل انه انما أعلن اسلامه من أجل الزواج بزبيدة لأنها كانت فتاة مغرية أيقظت بمفاتنها شهواته وعبثت بعقله ،ومن قائل انه فعل ذلك لدافع سياسي اذ المعروف عنه أنه كان أكثر القواد الفرنسيين بمصر تحمساً لسياسة الاندماج مع الأهالي وكان رأيه أن مصر يجب أن تبقى مستعمرة فرنسية أبداً • ولست أدري ما هو رأي المؤلف الباكستاني في هذا الشأن ؟ أحسبه يقول بأن اسلام مينو كان نتيجة اخلاص واقتناع عميق ـ والله أعلم !

ومن الطريف أن نذكر في هذه المناسبة أن قائداً فرنسياً من أصدقاء

---

(١) ادوار لوكروا (الجزار قاهر نابليون) بيروت بدون تاريخ ـ ص ١٨٠ •

(٢) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٥٠٥ •

(٣) المصدر السابق ـ ص٥٠٥ •

مينو كتب اليه يسأله : هل أن زوجته المسلمة جميلة ، وهل في نيته أن يتحفها برفيقات لها جرياً على عادة أهل البلاد ؟ فأجابه مينو قائلاً : « يا عزيزي الجنرال ، ان زوجتي ••• طويلة القامة ، مبسوطة الجسم ، حسنة الصورة من جميع الوجوه • فلها عينان رائعتان ، ولون بشرتها هو اللون المصري المألوف ، وشعرها طويل فاحم • وهي لطيفة الطبع ، وقد وجدتها تتقبل كثيراً من العادات الفرنسية بنفور أقل مما توقعت ••• وأنا لم ألح عليها بعد في الخروج سافرة على الرجال ، فهذا يأتي شيئاً فشيئاً •• ولن انتفع بما أباحه النبي من الزواج بأربع نساء خلاف السراري : فان في النساء المسلمات شهوة حارة عنيفة ؟ وفي زوجة واحدة أكثر من الكفاية لي »[(١)] •

المجمع العلمي المصري :

كان نابليون قد استصحب معه الى مصر ١٦٧ رجلاً من المختصين بمختلف العلوم والفنون ، فكان فيهم الفلكيون والرياضيون والكيميائيون والأطباء والآثاريون والمعماريون وعلماء المعادن والنبات والحيوان والمصورون وغيرهم ، وقد ألّف من هؤلاء مجمعاً سُمّي بـ « المجمع العلمي المصري »• لقد كان هدف نابليون من فتح مصر تحويلها الى مستعمرة فرنسية ، وأراد من أعضاء المجمع أن يساعدوه على جعل مصر أكثر عمرانا وانتاجاً ونظاماً لكي يزداد بذلك كسب فرنسا منها •

كان نابليون كصاحب البقرة الذي يغذيها جيداً ويعتني بها لكي يزداد لبنها ، وهو بذلك يختلف عن معظم الفاتحين القدامى الذين دأبوا على استهلاك أقصى ما يستطيعون من البقرة حتى اذا ماتت أكلوا لحمها وقرمطوا عظامها • يقول المؤرخ هيرولد في وصف نابليون : « كانت القدرة على الجمع بين حب العظمة الشخصية ونفع الناس احدى المواهب الكثيرة

---

(١) المصدر السابق ـ ص٥٠٥ •

التي تفرد بها . فأنشأ المجمع العلمي المصري معيناً له ، وضرباً من التجميع لأرباب الفكر ، لتساعده معلوماته وأبحاثه ومشورته في ادارة البلاد وارساء الأساس لتقدمها في المستقبل . وكان هذا الهدف في ذاته جديداً لم يسبق له نظير ... »[1] .

اتخذ المجمع مركزه في قصر فخم من قصور المماليك في حي الناصرية في القاهرة ، وأضاف اليه مجموعة من المباني المحيطة به ، وما لبث أعضاء المجمع أن أنشأوا حديقة للحيوان وأخرى للطيور ، وثالثة للتجارب الزراعية ، ثم أسسوا مختبراً كيمياوياً ، ومتحفاً صغيراً للتاريخ الطبيعي ، ومكتبة ، ومرصد ، ومطبعة ، ومجلة ، ونواة لمتحف للآثار ، ومعمل لصنع الآلات التي يحتاجون اليها أو لاصلاحها . وكانت المهام العملية التي كُلّف بها أعضاء المجمع قسمين : الأولى عاجلة وهي العمل على اقامة طواحين الهواء ، وتطهير الترع وصيانتها ، واصلاح النظام المالي ، وصنع الأدوات التي لا يمكن جلبها من فرنسا بسبب الحصار البحري الذي فرضته بريطانيا . أما المهام الآجلة فهي العمل على دراسات تتناول شق قناة تصل البحر الأحمر بالبحر الابيض ، وبناء سدود على النهر للاستفادة من مياهه على نحو أفضل ، وادخال محاصيل جديدة ، وتحسين وسائل الزراعة ، ومنع الأوبئة ، ووضع نظام تعليمي جديد ، وغير ذلك .

وانصرف أعضاء المجمع الى هذه المهام بدأب عجيب ، وفي خلال السنوات الثلاث التي عملوا فيها بمصر انتجوا أثراً خالداً من آثار البحث الجماعي هو كتاب « وصف مصر »الذي يحتوى على أربعة وعشرين مجلداً ضخماً ، وقد طبع في فرنسا بين عام ١٨٠٩ و ١٨٢٨م[2] .

---

(١) المصدر السابق ــ ص٢٣٠ .

(٢) توجد في بغداد نسخة من هذا الكتاب بمجلداته المتعددة عند السيدة مرغريت مكية استاذة التاريخ في كلية الآداب بجامعة بغداد .

وفتح المجمع قاعاته ومكتبته لمن يريد الاطلاع عليها من الفرنسيين أو المصريين • يقول الجبرتي : « واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم ، وخصوصاً اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وكرات البلاد والاقاليم ••• ولقد ذهبت اليهم مراراً واطلعوني على ذلك ••• » • ويصف الجبرتي كيف قام العلماء الفرنسيون أمامه ببعض التجارب الكيميائية والفيزيائية ، ثم يقول : « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا »(١) •

يقول الدكتور حسين فوزي النجار : « وقد كشف مجيء الحملة الفرنسية عن عظم الهوة التي تفصل بين حضارة الغرب الناهضة المتقدمة وحضارة الشرق الآفلة والتي لم يبق منها غير تلك الذبالة التي تلفظ أنفاسها في رحبات الأزهر ••• »(٢) •

مخترعات الحضارة :

مما يجدر ذكره ان الحضارة الأوربية كانت يومذاك في بداية ازدهارها ، ولم تكن المخترعات العجيبة التي نشهدها الآن قد ظهرت ما عدا بعض الأوليات منها ، كالساعة والمطبعة ، والمدفع والبندقية ، والعربة المركبة على نوابض وعجلات ، والنواظير المقربة والمكبرة ، والأداة التي تنتج تياراً كهربائياً ضعيفاً ، والمحرك البخاري ، والمنطاد الذي يرتفع في الهواء بتأثير الدخان • وكان المصريون يعرفون بعض تلك المخترعات قبل مجيء

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٣٥ ـ ٢٣٧ •

(٢) حسين فوزي النجار (رفاعة الطهاوي) ـ القاهرة بدون تاريخ ص ١٧ •

نابليون ، كالســاعة والمدفع والبندقيــة ، أما المخترعــات الأخرى فكانوا يجهلونها ، وقد حاول الفرنسيون اثارة دهشتهم بها فنجحوا تارة وفشلوا تارة أخرى .

يحدثنا الجبرتي عن الأداة التي تنتج التيار الكهربائي ، وكان قــد شهدها عند زيارته للمجمع العلمي ، فيقول : « ... ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف ويظهر له صوت وطقطقة ، واذا أمسك علاقتها شخص ، ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها ، ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيــده الأخرى ، ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة . ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابــه أو شيئاً متصلاً به حصل له ذلك ، ولو كانوا ألفاً أو أكثر ... »[١] .

يظهر أن الفرنسيين لم يكتفوا بالتجارب العجيبة التي يقومون بها في مختبرات المجمع العلمي والتي يشهدها قلة من الناس ، فأرادوا تطيير منطاد في سماء القاهرة ليشهده آلاف الناس . وكان المنطاد قد اخترعه اخوان فرنسيان اسمهما « مونتغولفيه » في عام ١٧٨٣م ، وهو عبارة عن كرة كبيرة مصنوعة من القماش الخفيف والورق لها فتحة في أسفلها وتنصب فوق موقد يخرج منــه دخان كثيف ، فعندما تمتلىء الكرة بالدخان ترتفع في الجو عالياً ، وقد تبقى في الجو عدة دقائق وهي تحمل قفصاً فيه حيوانات أو بشر[٢] . وقد استطاع بعض المغامرين في فرنسا أن يعبروا بحر المانش بمنطاد من هذا النوع .

أمر نابليون بصنع منطــاد في القاهرة ليطير به رجل عــلى مشهد من

---

(١) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٣٧ .

(2) ... (One Hundred Great Lives) London 1948 — P. 47—51.

الجمهور • وقد تم صنع المنطاد فعلاً ولكن أحداً لم يتطوع لركوبه مخافة أن يهبط به وسط خيام البدو • وقد كان البدو في تلك الأيام يعادون الفرنسيين فاذا أمسكوا بواحد منهم لاطوا به قسراً انتقاماً منه • واضطر الموكلون بأمر المنطاد أن يطلقوه في الجو من غير أن يكون فيه انسان ، بل ملأوه بالمناشير المطبوعة • ولم يكد المنطاد يرتفع حتى اشتعلت فيه النار ، وأخذت المناشير تنزل منه مبعثرة ، وشعر المشاهدون من المصريين بأنهم انخدعوا • وكان الجبرتي من جملة المشاهدين فقال يصف ما حدث : « فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها ، ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها الى البلاد البعيدة ••• بل ظهر أنها مثل الطيارة التي يعملها الفراشون بالمواسم والافراح » •

وقام الفرنسيون بمحاولة أخرى في اطلاق منطاد ، فارتفع المنطاد واندفع مع الريح حتى وصل الى بعض التلول القريبة من القاهرة فسقط عليها • ويتهكم الجبرتي على هذه المحاولة الثانية فيقول : « ولو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة وقالوا انها سافرت الى البلاد البعيدة بزعمهم »(١) •

أسباب الثورات :

ان السنوات الثلاث التي كانت مصر فيها تحت وطأة الاحتلال الفرنسي مليئة بالانتفاضات الشعبية والثورات، فقد نشبت في القاهرة ثورتان عارمتان : أحداهما في تشرين الاول من عام **١٧٩٨**م والثانية في آذار من عام **١٨٠٠**م، كما نشبت ثورات أخرى في مختلف أنحاء القطر •

ليس من العجيب أن تنشب ثورات في أي بلد يقع تحت وطأة احتلال أجنبي ، ولا سيما اذا كان سكان البلد على دين غير دين المحتلين ، فهذا أمر

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢١٢ ــ ٢١٣ •

يكاد يكون طبيعياً • ومع ذلك فاننا سنحاول فيما يلي ذكر الاسباب التي نراها ذات أثر في تحريض المصريين على مقاومة الاحتلال الفرنسي :

أولاً ـ كان الاسطول البريطاني بقيادة الاميرال نلسن قد أنزل ضربة ماحقة بالاسطول الفرنسي في أبي قير بالقرب من الاسكندرية ، وذلك في بداية شهر آب من عام **١٧٩٨م** ، وبذا انقطع الاتصال بين فرنسا والجيش الفرنسي في مصر ، فاضطر نابليون أن يعتمد في تموين جيشه على الضرائب والغرامات والقروض الاجبارية مما جعل المصريين يتذمرون• وكان أشد الضرائب وقعاً على سكان القاهرة ضريبة العقار ، فقد فرض الفرنسيون على الدار من المستوى الأعلى ثمانية فراسنة ، والأوسط ستة ، والأدنى أربعة ، ولم يعفوا من الضريبة سوى الدار التي يقل ايجارها الشهري عن الريال الواحد • وفرضوا الضرائب كذلك على الوكايل والخانات والحمامات والسيارج والحوانيت كل بحسبه ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وألصقوها على الجدران ، وعينوا المهندسين والخبراء لتقدير الضريبة على كل موضع • وكانت هذه الضريبة هي السبب المباشر لثورة القاهرة الاولى حسب رواية الجبرتي[1] •

ثانياً ـ أنشأ الفرنسيون عند دخولهم القاهرة جهازاً للشرطة مؤلفاً من المصريين ، ولم يقبل الدخول في سلك الشرطة سوى السفلة والشذاذ من الناس وصار هؤلاء يتحكمون في الأهالي ويقسون عليهم ، وكان أبرزهم رجل رومي اسمه بارتلميو ، وقد أطلق عليه الأهالي اسم « برطلمين » ، وسماه بعضهم « فرط الرمان » ، وكان في أول أمره ذا دكان في سوق الموسكي يبيع فيه القوارير ، ثم صار في عهد الاحتلال الفرنسي جلوازاً كبيراً يقود سرية من الشرطة كلهم من الأدنياء مثله • فكان يخرج في الشوارع بقامته الطويلة وهو راكب فرسه ، وقد تخرج زوجته العملاقة معه

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٩٣ ـ ٩٤ .

أحياناً فتركب فرساً الى جواره • وكان أحب الأمور اليه قطع الرقاب بالجملة ، « وكان منظره وهو يسير الى القلعة وقد جرد سيفه في يده ، ومن خلفه ضحاياه المكبلين ، ما يكفي لاخماد كل النوايا الشريرة في قلوب الكثيرين »[1] •

ثالثاً ـ كان الفرنسيون على أثر دخولهم القاهرة قد اتخذوا بعض الاجراءات الشديدة من أجل تنظيف المدينة وتنظيمها وتقليل خطر الأوبئة فيها ، فقد هدموا جميع البوابات التي تفصل أحياء المدينة والحارات بعضها عن بعض ، وأمروا كل ذي دار أن يضع قنديلاً مضيئاً أمام داره طوال الليل ، كما أمروا بوضع قنديل على كل ثلاثة دكاكين ، وألزموا الناس بالكنس والرش وازالة القذارة والقطط الميتة من الطرق القريبة منهم ، ووضعوا السم للكلاب ، ومنعوا من دفن الموتى في المساجد والمواضع القريبة من المساكن ، ونودي في الأسواق بنشر الثياب والامتعة وتعريضها للهواء والشمس خمسة عشر يوماً ، وعينوا لكل حارة امرأة ورجلين يدخلون البيوت للكشف عن ذلك ، وأمروا ذوي المرضى أن يبلغوا عن مرضاهم لكي يعودهم الأطباء الفرنسيون ، وأن يبخروا مساكنهم دفعاً للتعفن وانتشار الأمراض[2] • وهذه اجراءات لم يكن الأهالي قد اعتادوا عليها ، فصاروا يتخوفون منها ويتهربون ويتذمرون كما هو دأب الناس في البلاد المتخلفة دائماً •

رابعاً ـ كان دخول الفرنسيين للقاهرة سبباً في نشر السفور والتبرج والخلاعة بين النساء ، فادى ذلك الى امتعاض الأهالي وتذمرهم الشديد • يقول نقولا الترك في وصف ذلك : « فلهذا السبب صعب جداً دخول الافرنج على المصريين الى هذه الديار ولا سيما اذ كانوا يرون نساءهم

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٩٨ ـ ١٩٩ •

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٧٥ ، ٩١ ـ ٩٢ •

وبناتهم مكشوفين الوجوه ، مملوكين الافرنج جهاراً ، ماشين معهم في الطريق ، نايمين قائمين في بيوتهم ، فكانوا يكادون أن يموتوا من هذه المناظر ... »[1] • ويذكر الجبرتي ذلك بصورة أكثر تفصيلا فيقول : « لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة ، فمالت اليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش ، فتداخلن مع الفرنسيس لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهم ... ولما وفى النيل ودخل الماء الى الخليج وجرت فيه السفن ، وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهن لهم في المراكب ، والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة ، وعليهن الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة ، وصحبتهم آلات الطرب وخدمة السفن يكثرون من الهزل والمجون ويتجاذبون الصوت في تحريك المقاذيف بسخائف موضوعاتهم ، وكثائف مطبوعاتهم ، وخصوصاً اذا دبت الحشيشة في رأسهم وتحكمت في عقولهم ، فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غنائهم وتقليد كلامهم بشيء كثير ... »[2] • وكان مما حز في قلوب المصريين أشد من غيره تبرج زينب بنت السيد خليل البكري نقيب الاشراف ومخالطتها للفرنسيين وهي لم تكن آنذاك قد تجاوزت السادسة والعشرين من عمرها ، وشاع بين الناس أنها صارت عشيقة لنابليون وخليلته •

---

(١) ج • كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٦١ •

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج٢ ص١٣٢ — ١٣٤ •

خامساً ـ كان النصارى في مصر لهم زي خاص يتميزون به عن المسلمين ، ولم يكن يجوز لهم أن يحملوا السلاح أو يركبوا الخيل ، فلما احتل الفرنسيون مصر أمروا بالمساواة بين الناس من غير تفريق بينهم على أساس من الدين أو غيره . والظاهر أن البعض من النصارى واليهود قد فرحوا بالوضع الجديد واشتطوا فيه ، فساء المسلمين ذلك . وكان مما زاد في استياء المسلمين أنهم شاهدوا نساء النصارى واليهود تنتشر بينهن « موضة » السفور تقليداً للفرنسيين . وصار المسلمون يشكون الى نابليون من ذلك فأصدر نابليون أمره بان يعود النصارى واليهود الى ارتداء عمائمهم القاتمة وأحزمتهم المزركشة وأحذيتهم السوداء . ثم كتب نابليون الى أحد قواده يقول : « مهما فعلت بالمسيحيين فسيظلون دائماً أصدقاءنا . فيجب أن تمنعهم من أن يشتطوا في وقاحتهم »[1] .

سادساً ـ ان نابليون حين أنشأ ديوان الحكم من أعيان القاهرة وعلمائها ظن أنه يؤلف قلوبهم بذلك ويجتذبهم اليه ، ولكنه نسي أمراً كان الجدير به أن لا ينساه هو أنه أرضى بعمله فئة من الأعيان والعلماء هي تلك الفئة التي اشتركت في ديوان الحكم ، أما الفئات الأخرى فلابد أن تشعر بالحقد والنقمة وتضمر له العداء . ان نابليون بفعله ذاك كان كمثل من يقيم وليمة فاخرة بغية التحبب الى الناس ولكنه في الواقع يثير استياء الكثيرين منهم . فصاحب الوليمة انما يكسب بوليمته قلوب الذين دعاهم اليها فقط ، أما الذين لم يدعهم اليها وهم الاكثرون فانهم سينقلبون الى اعداء حاقدين يبغضونه ويشنعون عليه . ليس في مقدور صاحب الوليمة أن يدعو اليها جميع من يعرف من الناس ، ولابد أن يبقى منهم من ليس مدعواً ، وكلما اتسعت دائرة المدعوين اتسع معها عدد الذين يشعرون بأن صاحب الوليمة قد أهملهم ، ومعنى هذا كثرة الحاقدين عليه والشاتمين له !

---

(١) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٩٩ .

سابعاً ـ كان السلطان العثماني سليم الثالث قد أصدر فرامين يدعو المسلمين بها الى الجهاد ضد الفرنسيين ، وأخذت نسخ من هذه الفرامين تدخل مصر خلسة ويقرأها الأئمة علناً في المساجد . وقد هدد السلطان في فرامينه بأن جيوشه قادمة سريعاً لسحق الفرنسيين ، وستأتي معها مراكب عالية كالجبال ، ومدافع تبرق وترعد ، وأبطال يزدرون بالموت في سبيل الله . وكان المماليك الذين نجوا من معركة الاهرام وفروا الى الصعيد أو بلاد الشام يرسلون دعاتهم الى مصر ينذرون كل من يتعاون مع الفرنسيين بسوء العاقبة ، ويبشرون الناس بقرب الفرج .

وصار الذين تعاونوا مع الفرنسيين من أعضاء الديوان وغيرهم موضع احتقار الناس . حدث مرة أن نابليون أراد تكريم رئيس الديوان الشيخ عبدالله الشرقاوي فوضع على كتفه طيلسانا فيه شعار الجمهورية الفرنسية المثلث الألوان ، فاحمر وجه الشيخ غيظاً وألقاه على الأرض ، ولما أوضح الترجمان له أن الطيلسان يُقصد به رفع مكانة صاحبه في عيون الفرنسيين أجاب الشيخ : « ولكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين »[١] .

ثورة القاهرة الاولى :

بدأت هذه الثورة في **٢١** تشرين الاول **١٧٩٨**م ــ أي بعد ثلاثة أشهر من دخول الفرنسيين الى القاهرة ــ وكان أول محرك لها شيخ أزهري خرج الى الاسواق ينادي : « أن كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الازهر ، لأن اليوم ينبغي لنا أن نغازي الكفار » ، وصارت الأصوات ترتفع من فوق المآذن والسطوح العالية تدعو المسلمين الى الجهاد ، وظهر « فتوات » الحسينية والحارات البرانية وهم ينادون : « نصر الله دين الاسلام »[٢] . وتجمع العامة حولهم وهم مسلحون بالبنادق والهراوات ، وأقفلت الأسواق.

---

(١) المصدر السابق ــ ص٢١٠ .

(٢) ابراهيم جلال بك (من يوميات الجبرتي) القاهرة بدون تاريخ ــ ص٩٤ .

وجاء الحاكم العسكري الجنرال ديبو راكباً حصانه مع خمسة من أعوانه ، فانبرى له من أحد الازقة رجل وضربه على خاصرته بخشبة ، فسقط ديبو على الأرض ثم مات •

يقـول الجبرتي : « فعند ذلك أخذ المسـلمون حذرهـم وخرجوا يهرعـون ، وفي كل حدب ينسـلون ، ومسـكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة ••• وهدموا مصاطب الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة ، لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة ، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس ••• وكثر الرجف والزلزال ، وخرجت العامة عن الحد ، وبالغوا في القضية بالعكس والطرد ، وامتدت أيديهم الى النهب ، والخطف والسلب ، فهجموا على حارة للجوانية ، ونهبوا دور النصـارى الشوام والأروام ، وما جاورها من بيوت المسلمين على التحام ، وأخذوا الودايع والأمانات ، وسبوا النساء والبنات ، وكذلك نهبوا خان الملايات ، وما به من الأمتعة والموجودات ، وأكثروا من المعـاطب ، ولم يفكروا في العواقب ، وباتوا تلك الليلة سهرانين ، وعلى هذه الحال مستمرين »[(١)] •

وهاجم فريق من العامة الدار التي أودعت فيها الأدوات العلمية ، الفلكية والهندسـية والكيمياويـة والكهربائيـة وغيرها ، فقتلوا أربعة من الخبراء الذين كانوا فيها ثم حطموا الأدوات تحطيما • وهاجم فريق آخر منهم المستشفى العسكري فقتلوا جرّاحين اثنين على بابه ، كما قتلوا ثلاثة وثلاثين مريضاً فيه • وكاد دار المجمع العلمي أن يكون عرضـة لهجوم العامة لولا قيام العلماء للدفاع عنه ، وقد صمد هؤلاء العلماء فأخذوا يتصيدون أفراداً من المهاجمين ببنادقهم ، وظلوا كذلك عدة سـاعات حتى وصلتهم النجدة في الوقت المناسب •

ان ما فعله العامة في ثورة القاهرة لم يكن بالأمر الغريب أو النادر في تاريخ الثورات ، فهو يقع في كل ثورة شعبية على شكل من الاشـكال •

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٩٤ ـ ٩٥ •

وكان ما فعله العامة في الثورة الفرنسية لا يختلف في أساسه الاجتماعي عما فعله العامة في ثورة القاهرة • يقول المؤرخ هيرولد : ان الغوغاء الذين شاركوا في ثورة القاهرة لم يكونوا يختلفون عن اولئك الذين ساروا الى فرساي في بداية الثورة الفرنسية ، أو الذين جابوا شوارع باريس بعدئذ وهم يرفعون ثديي الأميرة دولامبال على رؤوس الرماح[1] •

ان الغوغاء هم الغوغاء في كل مكان وزمان ، ولكن أفعالهم الوحشية الفظيعة لا يجوز أن تحجب عنا ما في الثورات التي يشاركون فيها من جوانب حميدة أو مبادىء صالحة •

القضاء على الثورة :

أمر نابليون بتسليط مدافع القلعة على جامع الأزهر وما حوله من الدور والأسـواق اذ كانت تلك المنطقة مركزاً لتجمع الثوار • ففي ظهر اليوم الثاني من الثورة بدأت القنابل تتساقط تباعاً على ساحة الجامع فتفتك بمن كان فيها من الناس ، كما سقطت على الدور المجاورة ، فبعث دو يهـا الرعب الشديد في سكان القاهرة اذ لم يكونوا قد شاهدوا ذلك من قبل ، فأخذوا يصرخون : « يا سلام من هذه الآلام ، يا خفي الألطاف نجّنا مما نخاف »[2] ، وصاروا يتراكضون في كل جانب ويدخلون في كل مكان يظنون فيه النجاة • وفي المساء أحاط الجنود الفرنسيون يصحبهم ثلاثمائة خيال بالجامع ، ثم دخلوا فيـه وأخذوا يأسـرون من كان فيه من الثوار ويعبثون به وبمحتوياته عبثاً شديداً • وذهب شيوخ الأزهر لمقابلة نابليون في الأزبكية يطلبون منه الصفح ، فأخذ يلومهم ثم أعلن العفو عنهم • ولكن اعلانه العفو كان ظاهرياً اذ أنه أصدر أوامره خفية بقتل كل من قاد الثورة أو شارك فيها • وكان من جملة ما أمر به في هذا الشأن قوله لأحد قواده :

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٦٤ •

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٩٦ •

« تفضل أيها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أُمسكوا وبيدهم سلاح ، فليؤخذوا الى شاطيء النيل ••• بعد هبوط الظلام ، ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس في النهر » • ثم أمر نابليون باعدام ثمانين رجلاً من الذين كانوا أعضاء في « ديوان الدفاع » وهو الديوان الذي كان بمثابة مركز القيادة للثورة[1] •

ومضت بضعة أيام كانت شديدة على سكان القاهرة ، فقد صار الجلواز الكبير « برطلمين » يبث أعوانه وجواسيسه في الطرقات والحارات بحثاً عمن شارك في الثورة أو نهب الدور ، وكان المنهوبون من النصارى وغيرهم يدلّونه على من اعتدى عليهم ، كما كان الناهبون أنفسهم يدل بعضهم على بعض • وصار موكب « برطلمين » يسير في شوارع القاهرة وفيه الكثير من المقبوض عليهم موثقين بالحبال وهم يساقون الى السجن[2] •

وسرعان ما عادت المياه الى مجاريها ، فنظفوا الأزهر وعاد الناس الى الصلاة فيه ، واستطاع الخبراء في المجمع العلمي صنع أدوات جديدة بدلاً من تلك التي حُطمت أو نُهبت • وفي ٢١ كانون الأول أذاع نابليون على أهالي القاهرة منشوراً أشار فيه الى عفوه ، وهذا هو نصه :

« ايها العلماء والأشراف ، أَعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني انما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره ، فلا يجد ملجأً ولا مخلصاً ينجيه مني في هذا العالم ، ولا ينجو من بين يدي الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى • والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ، ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة • وأَعلموا أمتكم أن الله قدّر في الأزل هلاك أعداء الاسلام وتكسير الصلبان على يدي ، وقدّر في الأزل أني أجيء من المغرب الى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الأمر الذي أمرت به • ولا يشك العاقل أن هذا

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٧٠ ــ ١٧١ •

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٩٩ •

كله بتقدير الله وارادته وقضائه • وأعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرّح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل ، وأشار في آيات أخرى الى أمور تقع في المستقبل ، وكلام الله في كتابه صدق وحق • اذا تقرر هذا وثبتت هـذه المقالات في آذانكم ، فلترجع أمتكم جميعاً الى صفاء النية واخلاص الطوية ، فان منهم من يمتنع عن الغي واظهار عداوتي خوفاً من سلاحي وشدة سطوتي ، ولم يعلموا أن الله مطلع على السرائر ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور • والذي يفعل ذلك يكون معارضاً لأحكام الله ومنافق ، وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب • واعلموا أيضاً أني أقدر على اظهار ما في نفس كل أحد منكم لانني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليـه بمجرد ما أراه ، وان كنت لا أتكلم ولا أنطق بالـذي عنده • ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعايشة أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يرد ، وان اجتهاد الانسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذي قدرّه وأجراه عـلى يدي ، فطوبى للذين يسـارعون في اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام »[1] •

يلاحظ القاريء في هذا المنشور انه يختلف اختلافاً واضحاً من حيث أسـلوبه ولغته عن المنشور الأول الذي نشـره نابليون في بداية الغزو • فالمنشور الأخير مكتوب بلغة فصيحة وأسلوب أدبي لا بأس به ، بينما كان المنشور الأول مكتوباً بلهجة عامية مبتذلة • ويمكن أن نفسر هذا الفرق بين المنشورين بأن نابليون لم يكن لديه في بداية الغزو من يترجم له سـوى بعض العامة من المغاربة أو أهل مالطة ، أما بعد استقراره في القاهرة فقد كان لديه موظفون يحسنون الترجمة والتعبير بالعربية الفصيحة •

ظهور المهدي :

في أواخر كانون الثاني من عام ١٧٩٩م توجه نابليون بشطر من جيشه

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٧٤ ــ ٢٧٥ •

نحو الشام بغية فتحها • وقد فتح الكثير من المدن الفلسطينية بسهولة غير أنه وقف عاجزاً تجاه أسوار عكا ، وبعد أن حاصرها طيلة شهرين نكص عنها خائباً ، وكان للطاعون أثر غير قليل في خيبته تلك •

في الوقت الذي كان فيه نابليون مشغولاً بحصار عكا ، ظهر في الاسكندرية درويش ليبي اسمه أحمد وادعى انه المهدي المبعوث لقيادة المؤمنين في القضاء على الكفار • وسار نحو الجنوب في منطقة البحيرة الواقعة الى الغرب من نهر النيل حول دمنهور ، فأخذ يتجول في القرى وبين القبائل البدوية يهيّج الناس ويعظ فيهم • وكان يسير بين الناس عارياً من الثياب تقريباً ويزعم أنه قادر أن يقلب الافرنج الغزاة الى تراب بمجرد النظر اليهم ، وأن يمنع مدافعهم من الانطلاق بنفخة من فمه ، وأن يجعل قذائف المدافع واقفة في الهواء فلا تصل اليهم •

وكان هذا « المهدي » يزعم أيضاً أنه ابن ملك المغرب ، وأن جسده روح خالص لا يحتاج الى طعام ، وهو يقتات عادة بغمس اصبعيه في ابريق لبن ودعك شفتيه بهما ، وهو يستطيع أن يحوّل كل مايمسه الى ذهب ، أما الرصاص فلا يؤذيه ولا يؤذي أصحابه • وقد انطلت هذه المزاعم على الفلاحين والبدو واستهوتهم ، فجنّد منهم عدة آلاف •

وفي ٢٤ نيسان ١٧٩٩م استطاع اتباع هذا « المهدي » أن يستولوا على بلدة دمنهور ، وذبحوا الحامية الفرنسية فيها ،ثم زحفوا على الدلتا • غير أن حملة تأديبية فرنسية أدركتهم في ٩ آذار ، وأدركوا خطأهم في أول لقاء لهم برصاص البنادق وقذائف المدافع • ففروا الى الصحراء • ولا يعرف على التحقيق هل فر « المهدي » معهم أم سقط بين الضحايا[١] •

يبدو على أي حال أن ثورة المهدي أقلقت الفرنسيين في أول نشوبها ، ولعلهم ظنوا أنها ستنتشر في القرى المصرية انتشار النار في الهشيم • فقد

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٤٢٩ ــ ٤٣٠ •

كتب أحد الفرنسيين في مصر وهو المسيو ثير يقول : ان ثورة المهدي وضعتهم في خطر[1] • ومهما يكن الحال فقد انتقم الفرنسيون من دمنهور انتقاماً فظيعاً ، حيث ورد على لسان أحد قوادهم قوله : ان دمنهور زالت من الوجود ، فقد أُحرق أو ضُرب بالنار ما بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ من أهلها[2] •

معركة أبي قير :

كانت حملة نابليون في فلسطين سيئة الحظ الى أقصى حد ، فلم يرجع الى مصر من الجنود الفرنسيين سوى ثلثهم تقريباً ، أما الباقون فقد ماتوا أو أصابهم العجز • ولكن نابليون حين عاد الى القاهرة أمر بان يقام له استقبال كما يقام للفاتح المنتصر •

وفي ١٤ حزيران دخل نابليون القاهرة على رأس من بقي من جنوده ، أما الجرحى والمرضى فكانوا قد وزعوا على عدد من المدن في الطريق اخفاءاً لأمرهم • ودخل موكب نابليون من باب النصر ، وكان كل واحد من جنوده يحمل خوصة من سعف النخل مثبتة في قبعته اشارة الى النصر المزعوم الذي ظفروا به في فلسطين ، كما نُشر السعف في طريق الموكب ، واكتظت الشوارع بجموع كبيرة من المتفرجين • ووصل الموكب الى ميدان الازبكية حيث كان في استقباله العلماء والأعيان وكبار القواد •

ولم يمض على نابليون في القاهرة بعد عودته اليها من فلسطين سوى شهر واحد حتى بلغه وصول جيش عثماني بالسفن الى مقربة من الاسكندرية • وكانت هذه فرصة كان نابليون يترقبها في تلك الظروف الحرجة المحيطة به ، فهو كان يطمع أن ينزل هزيمة فادحة بالعدو لكي يستعيد بعض سمعته التي فقدها من جراء الحملة الفلسطينية •

---

(١) أدوار لوكروا (المصدر السابق) ص١٨١ •

(٢) ج كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٤٣٠ •

قُدِّر عدد الجيش العثماني بما يقارب العشرة آلاف ، وقد نزل على مقربة من قرية أبي قير ، فاقتحم معقلاً فرنسياً يضم ثلاثمائة جندي وذبحهم جميعاً ، ثم احتل بعدئذ الحصن المشيّد على قمة شبه الجزيرة • وعندما وصلت أنباء هذه الانتصارات الى سكان القاهرة انتشر الفرح بينهم وظنوا أن الجيش العثماني سيدق قريبا أبواب القاهرة • يقول الجبرتي في هذا الصدد : « فلما تحققت هذه الأخبار كثر اللغط في الناس وأظهروا البشر وتجاهروا بلعن النصارى ، واتفق أنه تشاجر بعض المسلمين بحارة البرابرة مع بعض نصارى الشوام فقال المسلم للنصراني : ان شاء الله بعد أربعة أيام نشتفي منكم ، وكلام من هذا المعنى ، فذهب النصراني الى الفرنسيس مع عصبة من جنسه وأخبروهم وزادوا وحرفوا وعرفوهم أن قصد المسلمين اثارة فتنة ، فأرسل قايمقام الى الشيخ المهدي وتكلم معه في شأن ذلك وحاججه ، وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان فقام المهدي خطيباً وتكلم كثيراً ونفى الريبة وكذب أقوال الأخصام وتشدد في تبرئة المسلمين عما نسب اليهم وبالغ في الحطيطة والانتقاص من جانب النصارى ، وكان هذا المقام من مقاماته المحمودة • ثم جمعوا مشايخ الأخطاط والحارات وحبسوهم »[1] •

وفي صباح ٢٥ تموز نشبت معركة طاحنة بين الجيش العثماني والجيش الفرنسي في أبي قير ، وكان نابليون يدير المعركة بنفسه ببراعته العسكرية المعهودة • وفي الساعة الواحدة من بعد ظهر ذلك اليوم انتهت المعركة بانكسار الجيش العثماني وأسر قائده مصطفى باشا ، ولم ينج منه سوى أفراد قلائل فكانت هزيمة ماحقة •

ولما عاد نابليون الى القاهرة واستقر في قصره بالأزبكية ذهب للسلام عليه العلماء والأعيان • يقول الجبرتي : « فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان : ان صاري عسكر يقول لكم انه لما سافر الى الشام

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص١٩٤ — ١٩٥ •

كانت حالتكم طيبة في غيابه ، وأما في هذه المرة فليست كذلك لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيس لا يرجعون بل يموتون عن آخرهم ، فكنتم فرحانين ومستبشرين وكنتم تعارضون الأغا في أحكامه ، وان المهدي والصاوي ما هم (بونو) أي ليسوا طيبين ، ونحو ذلك ... فلاطفوه حتى انجلى خاطره وأخذ يحدثهم على ما وقع له مع العساكر بأبو قير والنصر عليهم وغير ذلك »[1] .

الجنرال كليبر :

بلغ نابليون عن تدهور الأوضاع في فرنسا وقيام اتحاد دولي ضدها ، فقرر العودة اليها . وقيل ان مما دفعه الى العودة نبأ مفاده أن زوجته جوزفين انتهزت فرصة غيابه وصارت تخونه مع عشيق لها .

أُعدّت لنابليون في الاسكندرية أربع سفن اثنتان منها حربية من نوع الفرقاطة . وفي ٢٣ آب ١٧٩٩م تحركت السفن بنابليون ومعه أربعمائة رجل ، وكان الحظ حليفه حيث نجا من الوقوع في قبضة الاسطول البريطاني الذي كان يبحث عنه . وقد استغرقت الرحلة الى فرنسا سبعة وأربعين يوماً عاش فيها نابليون على أعصابه .

استخلف نابليون على القيادة من بعده قائد اسمه الجنرال كليبر ، وكان هذا يختلف عن نابليون من بعض الوجوه ، قيل ان نابليون كان يقطع في كل يوم ستة رؤوس وهو محتفظ ببشاشته أما كليبر فكان يقطع رؤوساً أقل ولكنه لم يكن بشوشاً وكان علاوة على ذلك يعتصر الاغنياء بطريقة منظمة ويفرض عليهم الضرائب والغرامات الفادحة[2] .

وقامت في عهد كليبر ثورة القاهرة الثانية وكانت أشد من الأولى وأكثر هولاً ، وقد شارك فيها أهل بولاق . واستطاع كليبر أن يقضي عليها ، كما هزم الجيش العثماني الذي كان قد اقترب من القاهرة من جهة الشرق

---

(١) المصدر السابق ــ ج١ ص١٩٨ ــ ١٩٩ .

(٢) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٤٧٢ .

في الوقت نفسه .

وفي ١٤ حزيران ١٨٠٠م بينما كان الجنرال كليبر يتمشى في حديقة قصره اقترب منه رجل بزي العمال اسمه سليمان الحلبي متظاهراً بأنه يريد تقبيل يده ، ثم أغمد مديته في بطنه فسقط كليبر صريعاً يتخبط بدمائه . وانتشر خبر مصرع كليبر في القاهرة كالبرق ، ودقت الطبول تدعو الجنود الى مراكزهم ، ولجأ الأهالي الى بيوتهم محتمين بها خشية العاقبة ، بينما اندفع بعض الجنود في الشوارع كالمجانين يضربون بسيوفهم كل من يصادفونه من الرجال والأطفال . ولم تنته الفوضى الا بالعثور على القاتل ، فقد وجدوه يصلّي الى جانب جدار متهدم والمدية بقربه وهي ملوثة بالدم والتراب .

وبعد اجراء المحاكمة للقاتل حُكم عليه بعقوبة تسمح بها تقاليد الحكم في مصر ولكنها لا تتفق مع مبادىء الثورة الفرنسية. وقد تولى « برطلمين » تنفيذ الحكم فجعل يد القاتل تشوى على النار أولاً ثم أجلسه على خازوق بعدئذ . وقتل « برطلمين » معه ثلاثة من الأزهريين دل التحقيق على أن القاتل أفضى اليهم بعزمه على اغتيال كليبر ولم يخبروا الحكومة عنه[1] .

عهد عبدالله مينو :

خلف كليبر في قيادة الجيش الفرنسي بمصر عبدالله مينو الذي تحدثنا عن اسلامه من قبل . وأخذ هذا الرجل يعمل في ضوء الخطة التي تبنّاها بحماس وهي جعل مصر قطعة من فرنسا ، فراح يغير ملامح البلاد ليصوغها على صورة فرنسا ، فأمر بهدم أحياء كاملة في القاهرة لتتسع لانشاء شوارع فسيحة ، وانتزع جباية الضرائب من أيدي الأقباط وفرض ضريبة واحدة على الأرض ، وألغى الرسوم الاقطاعية ، وانشأ محاكم جنائية تحت ادارة الفرنسيين ، وأمر بقيد المواليد والوفيات اجبارياً ، وأصدر أول

(١) المصدر السابق ـ ص٤٩٩ ـ ٥٠٥ .

جريدة تطبع باللغة العربية ، وغير ذلك .

وكان عبدالله مينو يتظاهر بأنه حريص على الاسلام ويريد تطهيره من البدع . يقول الجبرتي : « ... أرسل كبير الفرنسيس يسأل المشايخ عن الذين يدورون بالأسواق يكشفون عوراتهم ويصيحون ويصرخون ويدعون الولاية وتعتقد فيهم العامة ولا يصلون صلاة المسلمين ولا يصومون ، هـذا جائز في الاسلام أو حرام في الشريعة ؟ فأجابوه بأن ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعنا وسنّتنا ، فشكرهم على ذلك وأمر الحكام بمنعهم والقبض على من يرونه بهذا الوصف ، فان كان مجنوناً ربط في المارستان ، أو غير مجنون فاما أن يرجع عن حالته أو يخرج من البلد » .

وفي أوائل عام ١٨٠١م وُلد للجنرال مينو طفل من زوجته العلوية زبيدة سماه « سليمان مراد جاك مينو » ، فكتب اليه مشايخ الديوان رسالة يهنئونه بهذا الحدث السعيد ، فرد عليهم مينو بجواب طويل ملأه بعبارات الخضوع لله وتمجيد الاسلام وذكر فناء الدنيا وبقاء الآخرة ، وفيه يقول : « ... فنحن نعلم أن القرآن العظيم الشأن ، ذلك المصحف الأكمل ، والكتاب المفضل ، يشمل على مبادىء الحكمة السنية والحقوق اليقينية ... بمثل ذلك عرفتُ أنه لمن المستحيل أن القرآن الشريف يفصح الا عـلى ما هو من باب النظام لأنه من دون ذلك فكل ما هو في هذا العالم الفاني ليس الا ممات وخراب ... فالآن انما نكون نحن من أشر المذنبين اذا سرنا سيرة كالضالين ، وعلى أوامره عصاة غير منخضعين ، ومع ذلك فنسأله جل شأنه أن يقوينا على السلوك في ديننا ودنيانا وهـذا القدر كفانا ... فيا حضرة المشايخ والعلماء الكرام اننا نشكر فضلكم على ما أظهرتم لنا من تهنئة بولادة ولدي السيد سليمان مراد جاك مينو ، فنطلب من الله سبحانه تعالى واسألوه كذلك بجاه رسوله سيد المرسلين أن يجود به عليّ زماناً مديداً ، وأن يكون للعدل محباً ، وللاستقامة والحق مكرماً ، وبوفاء وعده صادقاً ، وأن لا يكون من أهل الطمع ، فهذا هو أوفر الغنى الذي أرغبه

لولدي ، لأن الرجل الذي لا يهتدى الا بالخير لا يصرف اعتناءه الا في خير الأدب ، لا في قنية الفضة والذهب ، فنسأله تعالى أن يطيل بقاءكم ، والسلام »[1] .

مما يلفت النظر أن هذه الجهود التي بذلها مينو من أجل اقناع المصريين باخلاصه وصحة اسلامه باءت بالفشل ، فقد كان المصريون ينظرون الى مينو كنظرتهم الى نابليون من قبل اذ اعتبروه دجالا يريد بأخاديعه اقتلاع تقاليدهم ونظمهم[2] .

الجلاء عن مصر :

ان خطة مينو في البقاء في مصر والعمل على جعلها مستعمرة فرنسية كانت سبباً في انقسام الجيش الفرنسي الى فريقين : أقلية تؤيد مينو في البقاء ، وأكثرية تحن الى فرنسا وتريد الجلاء عن مصر . وقد فعل هذا الانقسام فعله في التعجيل بنهاية الاحتلال الفرنسي لمصر[3] .

وكانت بريطانيا تحاول منذ البداية ـ كما رأينا ـ مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر بكل وسيلة تقع في يدها . ثم استقر رأيها أخيراً على ارسال قوات بريطانية لتساهم مع القوات العثمانية في اخراج الفرنسيين من مصر . وفي الأول من آذار ١٨٠١م نزل في الاسكندرية جيش بريطاني ، كما جاء من الجنوب عن طريق البحر الأحمر جيش آخر فوصل الى الجيزة . وزحف من الشرق جيش عثماني بقيادة الصدر الاعظم يوسف ضياء باشا . وبعد مفاوضات ومماحكات تم الاتفاق على أن يجلو الفرنسيون عن مصر على نفقة الحلفاء . وقد حاول مينو التمرد على هذا الاتفاق ومعارضته ولم يقبل به الا بعد أن حوصر مع بعض قواته في الاسكندرية وذاقوا من

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج٢ ص٨٩ ـ ٩٤ .
(٢) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٥٠٩ .
(٣) عبدالعزيز محمد الشناوي (المصدر السابق) ص٨٤ ـ ٨٥ .

الجوع والعطش والوباء قسطاً لا يستهان بـه • وفي ١٨ تشـرين الاول ١٨٠١م تم اجلاء آخر جندي فرنسي عن الأراضي المصرية •

يقول الجبرتي في وصف الفرح الذي عم القاهرة لجلاء الفرنسيين عنها : « ••• ففرح الناس وهنأ بعضهم بعضاً ، وأظهروا الفرح والسرور بدخول المسلمين وخروج الكافرين ، وصاروا يتلقونهم ويسلمون عليهم ويباركون لقدومهم ، والنساء يلقلقن بألسنتهن عند رؤيتهن في الأسواق ومن الطيقان ، وقام في الناس جلبة وصياح وتجمع الصغار والأطفال كعادتهم ورفعوا أصواتهن بقولهم نصر الله السلطان ونحو ذلك ••• وفي يوم الأحد سافر هجان الى جهة الحجاز وصحبته فرمان بخبر الفتح والنصر وارتحال الفرنسيس وجلائهم عن أرض مصر ، ومكاتبات من التجار لشـركائهم بارسال البن والبضائع والمتاجر الى مصر • وفيه نودي بعدم التعرض بالايذاء لنصراني أو يهودي سواءاً أكان قبطياً أو رومياً أو شامياً فانهم من رعايا السلطان ، والماضي لا يعاد ••• »[1] •

وذكر الجبرتي أن الجنود العثمانيين عادوا الى عاداتهم القديمة في معاملة أهل الاسواق ، فقد أخذوا يتحكمون في الباعة ويفرضون على أصحاب الحوانيت دراهم يأخذونهـا كل يـوم ، كما صـاروا يتناولون طعامهم في الاسواق بلا ثمن ، ولم يكفهم هذا بل تعرضوا للناس في مساكنهم فكان أفراد منهم يأتون الى البيت ويأمرون صـاحبه بالخروج منه ليسـكنوه • وأسرف بعض الجنود في التعدي على الناس ، فكان أحدهم يذهب الى السوق ومعه دنانير مزيفة ويستبدل بها دراهم من فضة • أو يستأجر حماراً من المكارين فيذهب به الى غير رجعة واذا سار المكارى معه ليمشى وراء حماره قتله • وعندما اشتكى الناس ذلك الى الرؤساء قال هؤلاء لهم : ان الجنود

---

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج٢ ص١٧٥ — ١٨٤ •

هم اخوانكم في الجهاد حاربوا أعداءكم وأخرجوهم من بلادكم وهم الآن ضيوفكم لأمد قصير فلم يسع الناس الا السكوت[1] .

ومن أغرب ما ذكره الجبرتي في هذا الشأن هو أن بعض الانتهازيين الذين كانوا يخدمون الفرنسيين ويتعاونون معهم انقلبوا الآن وصاروا من أشد الناس حماساً في تأييد العهد الجديد . يقول الجبرتي : « ... والعجب أن بعض نصارى الأروام الذين كانوا بعسكر الفرنسيس تزيوا بزي العثمانية وتسلحوا بالأسلحة واليطقانات ودخلوا فيهم وشمخوا بآنافهم وتعرضوا بالايذاء للمسلمين في الطرقات بالضرب والسب باللغة التركيسة ويقولون في ضمن سبهم للمسلم : فرنسيس كافر . ولا يميزهم الا الفطن الحاذق أو يكون له بهم معرفة سابقة »[2] .

ومن الأحداث التي أثارت انتباه الناس آنذاك ما جرى لزينب ابنة نقيب الاشراف السيد خليل البكري ، وهي الفتاة التي تبرجت وخادنت نابليون حسبما أشيع عنها ، فقد استُدعيت هي وأبوها الى المحاكمة ، ولما حضرت سئلت أمام أبيها عما فعلت فقالت : « اني تبت من ذلك » . ولما سئل أبوها قال : « اني بزيء منها » ، فأمروا بكسر رقبتها . وصدر الأمر بعزل البكري من نقابة الاشراف واعادة النقابة الى صاحبها الأول السيد عمر مكرم الذي كان الفرنسيون قد عزلوه عنها . ثم أصدر الوالي العثماني أمره بعزل البكري من مشيخة السجادة البكرية أيضا وقال : انه « لا يصلح لسجادة الصدّيق »[3] .

---

(١) ابراهيم جلال بك (المصدر السابق) ص١٢٠ ـ ١٢١ .

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج٢ ص١٨٤ .

(٣) عبدالعزيز محمد الشناوي (المصدر السابق) ص٨٧ ـ ٨٩ .

الملحق الثاني

حول طبيعة الانسان

كثيراً ما أخطأ المفكرون القدماء في فهم ظواهر المجتمع وأحداث التاريخ من جراء خطأهم في فهم الطبيعة البشرية • وقد حاولت في مؤلفاتي التطرق الى بحث الطبيعة البشرية وشرح بعض نواحيها ، ووجدت الآن من المناسب أن أكتب هذا الملحق لأجمع فيه خلاصة ما كنت قد ذكرته سابقاً حول هذا الموضوع مع بعض الزيادات اتماماً للفائدة •

ان ما ابتغيه من هذا الملحق هو أن يعرف القاريء رأيي في الطبيعة البشرية لكي يفهم الاتجاه الذي أسير عليه في تفسير التاريخ والمجتمع •

العقل البشري :

يجب أن نعلم منذ البداية ان الانسان هو حيوان قبل أن يكون انساناً، وهو انما امتاز عن أخيه الحيوان ببعض الفروق التي جعلت منه انساناً • وأول هذه الفروق هو العقل •

بالغ القدماء في تقدير العقل واعتبروه موهبة عليا خلقها الله في الانسان لكي يجعله قادراً على التمييز بين الخير والشر ، ويرشده الى الحق • وقد اتضح الآن خطأ هذا الرأي ، ولم يعد يؤمن بصحته الا الذين لا يزالون يعيشون في تراث الماضي ، وهم كثيرون عندنا مع الأسف •

ان العقل في الانسان ما هو الا عضو كسائر الاعضاء ، وهو انما خلقه الله في الانسان لكي يساعده على تنازع البقاء كمثل ما خلق الخرطوم الطويل في الفيل ، أو المخالب القوية في الأسد ، أو السيقان السريعة في الفرس ، أو الناب السامة في الحية ، أو الدرع الواقي في السلحفاة • وبعبارة اخرى : ان العقل ليس المقصود منه اكتشاف الحقيقة ، أو التمييز

بين الخير والشر ، كما كان القدماء يظنون ، بل المقصود منه اكتشاف كل ما ينفع الانسان في الحياة ويضر خصمه •

معنى هذا ان الانسان في تفكيره لا يبحث عن الحقيقة بمقدار ما يبحث عن الوسيلة التي تساعده في الحياة • انه يدّعي دائماً بأنه يحب الحق والحقيقة ، ويضحي بمصلحته في سبيلهما • وهذا وهم يتوهمه الانسان أحياناً لكي يتباهى بنفسه • فالانسان يحب الحقيقة حين تكون نافعة له ، وتراه عند ذلك يطالب بها ويترنم بمدحها ويلعن مخالفيها ، وهو يستمر على ذلك ما دامت الحقيقة بجانبه ، ولكنها لا تكاد تتحول الى جانب خصمه حتى يبدأ بالنظر اليها من زاوية أخرى ونجده حينئذٍ يراوغ ويداور ، ويبحث عن الأدلة التي تقلل من شأن تلك الحقيقة ، وقد ينكرها انكاراً تاماً في حالة عجزه عن تفنيدها •

لكي نفهم كنه العقل كما هو في واقع أمره دعنا ننظر في أحوال البشر المختلفة ، ولنأت على ذلك بأمثلة ثلاثة هي :

أولاً ــ ان الانسان اذ ينشأ في بيئة اجتماعية معينة ، ويظل قابعاً فيها لا يفارقها ذهنياً ، نراه يؤمن بصحة ما فيها من معتقدات وتقاليد وقيم ، فهو يعتقد اعتقاداً جازماً أنها خير ما يمكن أن يكون في الدنيا كلها ، وأن ليس هناك ما هو أفضل منها ، وهو كلما فكر وتأمل لا يستطيع أن يخرج من اطار هـذا الاعتقاد الجازم • ان العقائد التي ينشـأ عليها قد تكون « سخيفة » جداً ولكنها في نظره « معقولة » جداً ، وهو يتعجب ويتسـاءل لماذا لا يؤمن بها المخالفون مثلما يؤمن هو بها ، ولا يدرى أن المخالفين يتعجبون ويتساءلون مثله •

ثانياً ــ ان الانسان حين يتنازع مع خصم له على مصلحة له مادية أو معنوية نراه يتخذ كل وسيلة تقع في يده من أجل التغلب على خصمه ، وهو مؤمن أن الحق معه وأن الباطل مع خصمه ، ويريد من الناس أن يؤيدوه على رأيه هذا • وهم اذا وافقوه كانوا في نظره منصفين ، أما اذا خالفوه كانوا ظالمين أو مغرضين « لعنة الله عليهم » ! • ان من الصعب جداً ،

أو من المستحيل أحياناً ، أن يقتنع انسان برأي ليس في مصلحته ، فان البرهان الذي نقدمه له هو برهان قوي في نظرنا نحن ، أما في نظره فهو بارد تافه لا قيمة له .

ثالثاً ـ اذا أحب الانسان شخصاً أو شيئاً تحيز في تفكيره نحوه ، فصار يبالغ في ذكر محاسنه ويغض النظر عن مساوئه . وهو يفعل العكس من ذلك اذا أبغض ذلك الشخص أو الشيء . ويتضح هذا غاية الوضوح في تحيز الانسان لنفسه اذ هو يحب نفسه أكثر مما يحب أي شيء آخر في الوجود ، وهذا موضوع سنأتي الى ذكره فيما بعد على شيء من التفصيل.

قد يسأل سائل : اذا كان العقل البشري كما تقول فكيف استطاع أن يخترع هاتيك المخترعات العجيبة حتى تمكن أخيراً من الوصول الى القمر ؟!

الواقع اننا لا ننكر عظمة العقل البشري من حيث قدرته على الاختراع والابداع ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون العقل متحيزاً في تفكيره . وربما صح القول ان تحيز العقل هو الذي مكّنه من الاختراع والابداع .

ان العقل البشري لا يبدع الا اذا كانت لديه مشكلة يريد حلها . أنظر الى الانسان في بداية أمره عندما كان النزاع على البقاء شديداً بينه وبين أخيه الحيوان ، فلقد كان الحيوان أقوى منه جسماً غير أن الانسان يمتاز عليه بما يملك من مقدرة على التفكير . فكان أول اختراع للانسان هو « الفأس الحجرية » ، وهي قطعة مدببة من الحجر منحوتة من أحد جوانبها لكي يسهل مسكها . وقد استطاع الانسان أن يغالب بها الحيوان على الرغم من ضعف جسمه . ثم أخذ الانسان يطور أسلحته شيئاً فشيئاً حتى توصل أخيراً الى الصواريخ والقنابل النووية .

معظم الاختراعات التي تزخر بها الحضارة الآن كان المقصود منها مغالبة الخصوم على وجه من الوجوه ، وهذا هو الذي جعل الاختراعات تنمو نمواً كبيراً أثناء الحروب ـ الحارة أو الباردة .

ان الباحث الذي يواصل الليل والنهار في مختبره بغية اكتشاف شيء من العلم يبدو للناظر البسيط كأنه منهمك في البحث عن الحقيقة لذاتها ، بينما هو في الواقع يبحث عن شيء ينفعه تجاه منافسيه ، او ينفع قومه تجاه خصومهم • ولهذا نجده يتالم كل الآلم حين يسبقه أحد الى الاختراع ، ويزداد المه حين يظهر الاختراع على يد احد من اعداء قومه •

الشعور بالذات :

قلنا ان الانسان يتميز عن الحيوان بالعقل ، وهناك ميزة أخرى للانسان ذات أهمية قد لا تقل عن أهمية العقل ، هي الشعور بالذات • ومما يلفت النظر ان القدماء لم يفطنوا الى هذه الميزة على الرغم من أهميتها ، وكان ذلك من الأسباب التي جعلتهم يخطئون في فهم الطبيعة البشرية •

ان الشعور بالذات هو ما يشعر به الانسان حين يتحدث عن نفسه ويقول « أنا » ، وهو الذي يدفع الانسان دائماً نحو الارتفاع في نظر الغير والحصول على اعجاب الناس وتقديرهم •

كل انسان يرغب من أعماق نفسه في أن يكون محترماً في مجتمعه له منزلة رفيعة أو مشهوراً يشار اليه بالبنان • فهو كثيراً ما يفضّل معاناة الألم أو الجوع ، وقد يضحي بماله أو بنفسه أحياناً ، من أجل أن يصون منزلته بين قومه • وهذا هو المحور الذي يدور حوله الشعور بالذات •

ان الشعور بالذات غير موجود في الحيوان ، فالحيوان لا يستحي ولا يبالي بأفراد نوعه كيف ينظرون اليه ، انه يعيش في عالمه الخاص بـه وهو سعيد ما دام قد حصل على الدفء والطعام • أما الانسان فلا تكمل سعادته الاّ بوجود الناس حوله من جهة ، وباحترامهم له من الجهة الاخرى •

ان الطفل البشري لا يملك الشعور بالذات عند ولادته ، ثم يبدأ هذا الشعور ينمو لديه تدريجاً • والملاحظ أنه في بداية شعوره بذاته يود أن يكون ممدوحاً ومفضّلاً على اخوته وأترابه ، فاذا مدحناه انتعش وبان

السـرور على وجهه ، واذا ذممناه انزعج وتألم وربما عصى وتمرد واخذ يزعق من غير سبب ظاهر • ان السبب الحقيقي في تمرده هو شعوره بأنه صار دون أترابه في المنزلة ، وهذا يؤلمه ألماً شديداً ، وربما جهل الطفل سبب ألمه في بعض الأحيان •

وحين يكبر الطفل ويصبح شخصاً بالغاً تظل هذه النزعة ملازمة له ، غير أنها تختفي تحت طلاء من الادعاءات والمزاعم المصطنعة • فالشـخص البالغ لا يختلف عن الطفل من حيث حبه للمديح وتقدير الناس له ولكنه لا ينظهر ذلك علانية بل يتظاهر بالعكس من ذلك رياءاً • ان الطفل صريح لم يتعلم الرياء بعد ، ولهذا فالطبيعة البشرية تظهر عليه بشكل مفضوح •

ان الشعور بالذات عملية نفسية تحدث في الانسان على مراحل ثلاث وهي تتتابع في لحظة واحدة ، فالانسان أولاً يتخيل شخصاً أو جماعة من الناس ينظرون اليه ، وهو ثانياً يتخيلهم يحملون رأياً عنه حسـناً أو قبيحاً ، وهو ثالثاً يشعر بالفخار أو الخزي حسبما يتخيل من رأيهم فيه • معنى هذا ان الشعور بالذات قد ينشأ من التوهم أو التخيل • فالانسان يشعر بالاعتزاز ويرفع رأسه فخاراً حين يتوهم رأي الغير فيه حسناً ، وهو عـلى النقيض من ذلك يشعر بالانكساف ويطأطيء رأسه خجلاً حين يتوهم رأي الغير فيه قبيحاً • ان الانسان لا يعرف ماذا يضمر الناس له في قلوبهم من احترام أو احتقار ، بل هو يتخيل ذلك تخيلاً ، وكثيراً ما يخطيء في تخيله فيحسب الناس معجبين به بينما هم في الواقع يستصغرونه ويحتقرونه ، أو يحسبهم محتقرين له بينما هم يحترمونه •

لا شك أن الانسان كلما ازداد نضوجه ازدادت مقدرته على معرفة ماذا يفكر الناس عنه ، ولكنه مهما كان ناضجاً فانه لا يستطيع أن يكتشف حقيقة ما يضمره الناس له بكل دقة ، ولابد أن يبقى جزء كبير من مشاعر الناس نحوه محجوباً عنه •

اذا كان الانسان مصاباً بـ « عقدة النقص » توهم أن الناس كلهم

يحتقرونه ويستهينون به ، ولذا فهو يشعر بالخجل والانكماش النفسي ، وتراه ضعيف الثقة بنفسه يخشى أن ينطق بقول أو يقوم بعمل لئلا يجابهه الناس بالسخرية والاهانة • وكثيراً ما تفوته الفرص من جراء ذلك •

ان المصابين بعقدة النقص قليلون ، أما اكثر الناس فهم يحملون ما يمكن أن نسميه بـ « عقدة الكمال » • والمصاب بهذه العقدة معجب بنفسه ويقدرّها أكثر مما هي في حقيقة أمرها ، فهو يعتقد أنه عظيم أو ذكي أو جميل ، وأنه يتفوق على أقرانه في كل شيء ، ويسوءه أن يرى أحد أقرانه ينال اعجاب الناس دونه ، فهو يضمر الحسد له أو الحقد ، ويحاول تصغير شأنه في نظرهم بأية وسيلة يقدر عليها •

الخلل في تكوين الذات :

ان الشعور بالذات في بداية تكوينه عند الطفل يكون فجاً ساذجاً على نحو ما رأينا ، ثم يتقدم نحو النضوج تدريجاً • ومن مظاهر الفجاجة في الطفل أن شعوره بالذات يتنوع بين لحظة وأخرى حسب تنوع الاشخاص الذين ينظرون اليه ، أو يتخيل أنهم ينظرون اليه • ففي مقدورنا أن نجعل الطفل يقوم بأي عمل نريده بمجرد أن نمدحه عليه كأن نقول مثلاً : « انظروا اليه كيف يصلّي ! انه يتقن الصلاة جيداً ! » ، ونراه عندئذ يقف بوقار مصطنع ويحرك شفتيه بالتلاوة ثم يركع ويسجد بغية أن ينال اعجابنا • أو نقول : « أنظروا كيف يرقص ! انه يتقن الرقص جيداً ! » ، ونراه يبدأ بالرقص على منوال ما فعل في صلاته •

وبمرور الأيام تأخذ الذات بالتناسق شيئاً فشيئاً حيث يقل فيها التنوع وتتجه نحو التوحد • وكلما ازداد نضوج الشخص وكثر احتكاكه بالناس زاد تناسق الذات فيه • ولكننا يجب أن لا ننسى أن التناسق الكامل في الذات لا يستطيع أن يصل اليه أي انسان مهما بلغت درجة نضوجه ، فلابد أن يبقى في الانسان شيء من التنوع الذاتي على وجه من الوجوه •

الملاحظ في بعض الأشخاص أنهم على الرغم من بلوغهم سن الكهولة

يظلون يحافظون على درجة من التنوع الذاتي قريبة مما كانوا عليها في سن الطفولة • فترى أحدهم يبدّل شخصيته حسب تبدل الاشخاص الذين ينظرون اليه دون أن ينتبه الى التناقض الواضح الذي يقع فيه • فهو مثلاً أثناء الحديث مع صاحب له قد يلمح امرأة حسناء بالقرب منه ، فيتغير فجأة في طريقة كلامه ، وفي حركاته وسكناته • انه يغفل عند ذاك عن وجود صاحبه ويركز اهتمامه على المرأة حيث يروم أن يؤثر فيها وينال اعجابها •

أعرف شخصاً من المصابين بهذا الخلل في تكوين الذات ، وهو يصلح أن يكون نموذجاً له ، فهو اذا جلس في مجلس أخذ يتغير في كلامه حسب تغير الاشخاص الذين يدخلون المجلس أو يخرجون منه • وهو قد يبدي رأياً ويتحمس له ثم ينقضه بعد لحظات • ولا يستحي من التناقض الذي يظهر عليه أو لعله لا يدري به • والسبب في ذلك ان الذات عنده لم تصل بعدُ الى درجة التناسق المناسبة لسنّه ، بل بقي كما كان في طفولته فجاً •

وهنـاك خلل آخر في تكوين الذات هو الـذي يطلق عليه اسـم « السيكوباثية » وقد يصح تعريبه بـ « داء الصفاقة » • فالشخص المصاب بهذا الداء يتميز عن غيره بوجود ضعف في تناسق ذاته من الناحية الزمنية • فهو لا يبالي بما فعل في الماضي ، أو ما سوف يفعل في المستقبل ، ولا يستحي منهما • انه قد يستقرض منك مبلغاً من النقود على أن يرجعه اليك بعد ساعة ، ثم تمضي عليه الساعة والساعتان وعشرات الساعات دون أن يشعر بأهمية وعده ، وربما قابلك بعدئذ بوقاحة كأنه لم يستقرض منك شيئاً ، وهو قد يبتسـم لك ابتسـامة بلهـاء ثم يكرر الوعد لك مرة بعد مـرة بلا جدوى •

ان الشـخص « الصـفيق » قد يخونك أو يغشـك أو يغتابك أو يهاجمك بصلافة ، ثم ينسى ذلك ويريد منك أن تنساه أيضاً • ومما يجدر ذكره أن الشخص السـوي قد يرتكب مثل هذه الأفعال ولكنه يخجل منها عادة ويحاول الاعتذار عنها أو تبريرها • أما الشـخص « الصفيق » فهو يرتكب تلك الافعال بلا اكتراث كأنه لم يفعل شيئاً يستحق اللوم •

ان الشخص « الصفيق » كثيراً ما ينتهي أمره الى الضياع والانهيار المعنوي • فهو حين ينسى وعوده ، أو يأكل الديون الصغيرة التي عليه ، يجعل الناس لا يثقون به ، وقد يصبح بينهم منبوذاً لا يعامله أو يعتمد عليه أحد • ومعنى هذا أنه يخسر سمعته ومستقبله من أجل دراهم معدودة أو أشياء تافهة •

ان الناس يتعجبون حين يجدون شخصاً يضرّ نفسه بهذا الشكل • والواقع أن الشخص « الصفيق » عندما يضر نفسه لا يخضع للتفكير المنطقي، بل هو يفعل ذلك بدافع لا شعوري لا يعرف هو مأتاه في نفسه • انه يكتفي بما تأتي به اللحظة الحاضرة من لذة عاجلة ، ولا يبالي بما يأتي به الغد من خسارة دائمة • وبعبارة أخرى ان شعوره بذاته منحصر في نطاق اللحظة التي هو فيها ، فهو لا يتخيل ذاته الماضية ولا ذاته المقبلة •

لا ننكر أن الشخص « الصفيق » قد يستفيد في بعض الظروف ، فقلة الحياء فيه تجعله ناجحاً في انتهاز الفرص أحياناً • انه يستطيع أن يتزعم كل مظاهرة ، ويقف في كل حفلة ، ويتزلف لدى كل متنفذ • والمعروف عن بعض المتنفذين أنهم يحتاجون الى شخص من هذا الطراز لكي يقوم بخدمتهم في المهمات التي لا يرضى أن يقوم بها الاشخاص الأسوياء •

التغلف الذاتي :

يحيط بعقل الانسان غلاف وهمي يحجب عنه ما يقول الناس في ذمه، ولهذا يبقى الانســان مغروراً بنفسـه معجباً بها فلا يعرف قيمته الحقيقية الموجودة في أذهان الناس عنه •

مما يساعد على تكوين هذا الغلاف الذاتي في الانســان هو ما اعتاد الناس عليه في حياتهم الاجتماعية من مجاملات ، فهم اذا أرادوا ذم شخص تحدثوا عنه في غيابه ولم يذكروا ذلك في حضوره الاّ نادراً ، أما المديح فهم يحرصون على ذكره في حضور الشخص وكثيراً ما يبالغون فيه بدافع التزلف والنفاق •

والانسان حين يسمع الناس يمدحونه يحسب أنهم يذكرون الحق الذي لا شك فيه • انه لا يدري ماذا يقول الناس عنه في غيابه • فهو مغتبط بالمديح الذي يسمعه ، اذ يميل اليه بكل جوارحه ، وينتش للمادحين ويصغي اليهم مما يشجعهم على التمادي فيه • واذا كان ذا نفوذ أو ثروة وجاء المنافقون يتزلفون اليه بمديحهم المفرط ازداد اغتباطا بنفسه وغروراً بها ، وتخيل أن الدنيا كلها تلهج بذكره وأن ليس للناس من حديث سوى حديث فضله وعظمته •

من طبيعة العقل البشري أنه لا يأخذ صور الاشياء كما هي في الواقع على نحو ما تفعل المرآة ، بل هو يلتقط نقاطاً معينة من الشيء الذي ينظر اليه ثم يكمّل الصورة بعدئذٍ من الخيال • وهذا هو ما يحدث للانسان عندما يريد أن يأخذ صورة عن نفسه ، فهو يلتقط الأماديح التي تقال فيه ، فيحفظها ويؤكد عليها ويبالغ فيها ، ثم يبني منها صورة زاهية عن نفسه ، وهو معتقد كل الاعتقاد أن هذه هي الصورة الحقيقية الموجودة في أذهان الناس عنه • فاذا جاءه أحد يصارحه بالحقيقة المرة تملكه الغضب واعتبر الانتقاد باطلاً وأن قائله لابد أن يكون مغرضاً أو حسوداً أو لئيماً •

والغريب أن الانسان كثيراً ما يذم الناس في غيابهم ، ولكنه لا يتصور أن الناس يفعلون به مثلما يفعل هو بهم • ان الغلاف الذاتي يمنعه من رؤية هذه الحقيقة الواضحة •

يجب أن لا ننسى ان الأفراد ليسوا كلهم على درجة واحدة من حيث ثخانة الغلاف الذاتي الذي يحيط بعقولهم ، فمنهم من يكون غلافه ثخيناً جداً وهو الذي يمكن أن نطلق عليه اصطلاح « الفطير » ، وفيهم من يكون على النقيض من ذلك ذا غلاف رقيق يكاد يكون شفافاً وهو الذي يمكن أن نطلق عليه اصطلاح « الناضج » • وأكثر الناس هم الذين يتفاوتون من حيث ثخانة غلافهم الذاتي بين « الفطير » و « الناضج » على درجات •

ان الشخص « الناضج » هو الذي يعرف قيمة نفسه ويقدرها تقديراً

قريباً من الواقع ، واذا أحس بشـيء من الغرور أو الاعجاب بالذات استطاع كتم هذا الاحساس في نفسه وترويضه بحيث لا يظهر منه الا ما هو مقبول في نظر الناس • وهو حين يتواضع في اظهار مشـاعره الذاتية لا يصطنع التواضع ويتكلفه ، وكثيراً ما يكون تواضعه صميمياً لا رياء فيه أو مباهاة •

أما الشخص « الفطير » فأمره عجيب • انه معجب بنفسه الى الدرجة القصوى وهو موقن بأن الناس كلهم معجبون به أيضاً • واذا استحسن شيئاً ظن أن الناس جميعاً لابد أن يستحسنود مثله • وتراه يأتي بالنكتة التافهة ويكون أول الضاحكين عليها ، وحين يضحك الناس معه مجاملة يعتقد أن الناس « ماتوا » من الضحك ، وقد يؤدي ذلك به الى أن يعيد النكتة عـلى الناس مرة بعد مرة •

واذا تحدث هذا « الفطير » في مجلس أخذ يرنو ببصره خلسة نحو الحاضـرين ليرى تأثير كلامه فيهم • أما اذا ألقى كلمة في حفل عام ، أو كتب مقالة في جريدة ، فانه يظل يتباهى بما قال مدة طويلة ، ولا يكاد يلتقي بصديق له حتى يسألهعن الكلمة التي ألقاها وعن « عبقريتها » التي لا تضاهى • وقد يضطر الصديق الى مجاملته فيقول له ما يريد أن يقال ، وعند هذا ينبلج وجهه عن ابتسامة الفخر ثم يمضي في طريقه رافعاً رأسه نحو الأعالي •

واذا كان هذا « الفطير » شاباً من طلاب الغرام ازدادت مشـكلته تعويصاً ، فهو يحسب أن « حسنه » فاق حسن يوسف الصديق ، ناذا دخل الى مرقص شرقي تخيل أن الراقصات وقعن في حبائل غرامه ، أو هن على وشك أن يقعن فيها ، وهو عند انتهاء الحفلة ربما وقف في باب المرقص متوقعاً أن تدعوه احدى الراقصات الى بيتها لشدة ما تشعر به نحوه من لوعة الهيام !

قد يسـأل سـائل : أيهما اكثر سـعادة في الحياة ، « الفطير » أم « الناضج » ؟ •

يمكن القول ان الشخص « الناضج » أكثر قدرة على فهم الحياة وعلى الاكتناه الموضوعي لها ، انما هو لا ينال من السعادة بمقدار ما ينال منها الشخص « الفطير » • ان الشخص « الناضج » حين ينجز عملا من الأعمال يستطيع أن يعرف القيمة الحقيقية لعمله على وجه التقريب ، ولهذا فهو لا يفرح به كما يفرح الشخص « الفطير » •

الواقع أن كل انسان مهما كان « ناضجاً » لا يمكن أن يخلو من بعض « الفطارة » قليلاً أو كثيراً • ان « النضوج » التام غير موجود في البشر كما لا توجد فيهم أية صفة أخرى كاملة • ومن الجدير بالذكر أن « الفطارة » ذات نفع كبير لصاحبها لانها تمنحه المنزلة الاجتماعية الرفيعة التي يطمح اليها ولو عن طريق الأوهام ، فلولا « الفطارة » لأدرك الانسان قدر نفسه وقيمة أعماله كما هي على حقيقتها ، وهذا أمر يصعب على الانسان تحمله • ان الأوهام ضرورية للانسان ولولاها لما أحب الانسان الحياة •

الجنون والعقل :

الجنون موضوع لا يزال العلم عاجزاً عن اكتناهه ، ولست أريد أن أتطرق الى هذا الموضوع الا بالقدر الذي يتصل بطبيعة الانسان من حيث تكوين الذات والعقل فيه •

الجنون أصناف شتى ، وأهم صنف فيه وأوسعه انتشاراً هو الذي يسمى بـ « الشيزوفرينيا » أي جنون الفصام ، وهو انما سمي بهذا الاسم لأن المصاب به ينفصم نفسياً عن المجتمع ويخلق له في أوهامه مجتمعاً خاصاً يعيش فيه كما يشاء •

ان شخصاً ما قد يعجز عن نيل المنزلة العالية التي كان يطمح اليها فيندفع ، لسبب من الاسباب ، نحو تخيل عالم خاص به لينال فيه المنزلة المطلوبة ، فتراه يحسب نفسه ملكاً أو أميراً أو قائداً مشهوراً أو عبقرياً

يشار اليه بالبنان ، وهو سعيد بهذه المنزلة الوهمية التي حصل عليها •

وهناك صنف آخر من الجنون هو ما يسمى بـ « البارانويا » ، أو جنون العظمة والاضطهاد ، والمصاب به يشبه المصاب بجنون الفصام من حيث اعتقاده بأنه شخص عظيم ، غير أنه يعتقد بالاضافة الى ذلك أن الناس يضطهدونه ويتآمرون عليه ، فاذا رأى اثنين يتهامسان فيما بينهما ظن أنهما يتآمران للايقاع به ، واذا سمع عن مظاهرة سياسية تصور أنها مدبرة ضده، وربما تصور أن الاستعمار العالمي كله يضع الخطط لقتله والتخلص منه •

يمكن القول ان كل انسان على وجه الأرض قد يحمل في أعماق نفسه بذرة الجنون من هذا الصنف أو ذاك ، أو كليهما معاً ، فكل انسان غير قانع بالمنزلة الواقعية التي هو فيها ، وهو قد ينطوى على نفسه ليتخيل المنزلة الرفيعة التي يطمح اليها ، وربما تخيل كذلك ان الناس يحسدونه على تلك المنزلة ويضمرون له البغضاء ويكيدون له • ولكن الفرق بين المجنون والعاقل هو أن أحدهما يتستر على نفسه ويكتم مشاعره ويتظاهر بالتواضع فيقول الناس عنه انه عاقل ، بينما الآخر يعلن عن مشاعره جهاراً ولا يبالي بما يقول الناس عنه • وبعبارة أخرى : ان العاقل هو الذي يملك القدرة على التمييز بين الأفعال التي يرضى عنها الناس وتلك التي يسخرون منها ، أما المجنون فهو لا يملك مثل هذه القدرة وتراه يكشف للناس عن جميع مايشعر بهتجاه نفسهوتجاه الغير لا يكتم منه شيئاً ، فظاهره وباطنه سـواء !

ولابد لنا في هذه المناسبة من أن نتطرق الى نموذج من الناس هو وسط بين العقل والجنون ، أو هو بعبارة أخرى : قريب من الجنون ولكنه ليس مجنوناً ، هو الذي يمكن أن نسميه بالشخص « الكيشوتي » •

ان هذا الاصطلاح مأخوذ من اسم بطل القصة الاسبانية المشهورة « دون كيشوت » ، وهذا الرجل كان يعيش في القرون الوسطى وكان يطمح أن يكون فارساً من اولئك الفرسان الشجعان الذين كانوا ينالون

اعجاب الناس يومذاك ، غير أنه كان ضعيف الجسم مسكيناً • وقد وجد حصانا هزيلاً فامتطاه ، ثم وجد درعاً ممزقاً فلبسه ، وخرج الى الناس ينادي : هل من مبارز ؟! وصار يبارز طواحين الهواء ظنا منه أنه يبارز العمالقة ، ويقتل قطيعاً من الغنم ظناً منه أنه يقاتل جيشاً عرمرماً •

ان هذه قصة لا تخلو من مبالغة ولكنها مع ذلك تمثل نموذجاً لشخصية موجودة في الواقع وان كان أصحابها قليلين •

ان الشخص « الكيشوتي » يقف في منتصف الطريق نحو الجنون ، والناس قد يسخرون منه كما يسخرون من المجنون أحياناً ولكنه لا يتقدم نحو الجنون ، بل يقف في مكانه طيلة حياته • انه يتصور نفسه أميراً ، أو زعيماً سياسياً مشهوراً ، أو قائداً من قواد صاحب الزمان ، والناس يعاملونه حسبما يتصور هو في نفسه لكي يضحكوا عليه ولكنه يعتقد أنهم يعاملونه بصدق واخلاص • وهو قد يقوم بأعمال عجيبة ليمثل الدور الذي يشتهيه ، كأن يظهر بمظهر الأمير أو الزعيم أو القائد ، واذا اشتد الناس في السخرية منه ظن أنهم يمازحونه حباً به •

ان الشخص « الكيشوتي » يختلف عن المجنون بكونه قادراً على كسب العيش واحتراف مهنة كسائر الناس ، وهو في مهنته يكاد لا يختلف عن العقلاء ،ولكن نقطة الضعف فيه هي أوهامه « الكيشوتية » وهي أوهام لا تسمح له أن يكون عاقلاً ، ولا تتقدم به نحو الجنون ، فهو يظل طيلة حياته في تلك المرحلة الوسطى بين العقل والجنون •

ان أكثر المجانين يمرون بالمرحلة « الكيشوتية » قبل أن يدخلوا في عالم الجنون • وكثيراً ما يدفعهم الناس بسخريتهم نحو الجنون دفعاً • أما الشخص « الكيشوتي » فهو يبقى في مرحلته الوسطى مهما سخر الناس منه وآذوه • فما هو السبب في ذلك ؟ ان هذا من ألغاز الشخصية البشرية التي لا يزال العلم عاجزاً عن حلها •

العامية والتفرد :

ان الانسان يخضع في حياته الاجتماعية لتنويم يشبه من بعض الوجوه التنويم المغناطيسي ، وهو ما يمكن أن نسميه بـ « التنويم الاجتماعي » • فالمجتمع يسلط على الانسان منذ طفولته ايحاءاً مكرراً في مختلف شؤون العقائد والقيم والاعتبارات الاجتماعية ، وهو بذلك يضع تفكير الانسان في قوالب معينة يصعب التحرر منها • وهذا هو الذي جعل الانسان الذي ينشأ في بيئة مغلقة ينطبع تفكيره غالباً بما في تلك البيئـة من عقائد دينية وميول اجتماعية واتجاهات عاطفية وما أشبه • فهو يظن أنه اتخذ تلك العقائد والميول بارادته واختياره ، ولا يدري أنه صنيعة بيئته الاجتماعية ولو أنه نشأ في بيئة أخرى لكان تفكيره على نمط آخر •

ان التنويم المغناطيسي في حقيقته ليس سوى ايحاء مكرر يُسلّط على الشخص كأن يقال له تكراراً انه يرى شيئاً معيناً ، وربما كان الشيء غير موجود ولكن صورته تنطبع في ذهن الشخص كأنه موجود فعلاً • وهـذا هو ما يفعله التنويم الاجتماعي في الكثير من الناس بحيث يجعلهم يؤمنون بالأوهام والخرافات وهم واثقون بأنها حقائق واضحة لا يجوز أن يتجادل فيها اثنان ، أو يشك فيها انسان !

ثبت علمياً أن الافراد لا يتأثرون كلهم بالتنويم المغناطيسي على وتيرة واحدة • فمنهم من يتأثر به كل التأثر ومنهم من يكون تأثيره فيه ضعيفاً ، وهناك أفراد لا يمكن تنويمهم اطلاقاً • والظاهر أن الافراد يتفاوتون تجاه التنويم الاجتماعي على منوال ما يتفاوتون تجاه التنويم المغناطيسي •

فالملاحظ أن السواد الاعظم من البشر في كل العصور ، وهم الذين نسميهم « العامة » ، يتأثرون بالتنويم الاجتماعي تأثراً كبيراً • فالفرد منهم يكون خاضعاً في تفكيره للايحاء الاجتماعي المسلّط عليه ، فهو يفكر مثلما يفكر الناس حوله ، يحب ما يحبون ، ويكره ما يكرهون ، وتكون عقائده وميوله طبق ما هي في محيطه الاجتماعي لا يخالفها الا قليلاً ، واذا اندفع

الغوغاء في أفعال اعتدائية عاتية أيّدهم وهتف لهم بشرط أن تكون أفعالهم موافقة للايحاء المسلّط عليه ، أما اذا كانت مخالفة له فانه يشجبها ويتقزز منها ويتعجب كيف قام الناس بها •

ان الشخص « العامي » قـد يكون ذا شهادة علمية عالية ولكن علمه ليس سوى مجموعة من المعلومات حفظها حفظاً دون أن تؤثر في نمط تفكيره • انـه يبقى « عامياً » في تفكيره مهمـا تعلم ، وهو لا يختلف عن « العامي » غير المتعلم الاّ بمظهره الخارجي أو بما يتحذلق به من أفانين الكلام وترديد المصطلحات العلمية •

وهناك على الضد من الشخص « العامي » شخص يمكن أن نطلق عليه اصـطلاح « المتفرد » وهو الـذي يكون تأثره بالتنويم الاجتماعي ضعيفاً نسبياً • وهذا الشخص يشعر منذ طفولته بأنه مختلف عن غيره ، فهو يرى الناس حوله يتفاخرون بأمور هي في نظره لا تستحق الفخار • انه يحب أن ينسجم مع الناس ولكنه لا يتمكن من ذلك في أكثر الأحيان ، فهو في واد وهم في واد آخر ، وربما كان معذباً من الناحية النفسية لعجزه عن مجاراة الناس في معتقداتهم وميولهم ، وهو قد لا يدري السبب في ذلك •

يمكن القول ان « التفرد » صفة ضرورية لتكوين شخصية العبقري أو النبي أو المصلح أو العالم أو أي شخص ينجز عملاً شاذاً عن المألوف • فلولا صفة « التفرد » في هؤلاء الاشخاص لما استطاعوا أن يفكروا بعملهم الشاذ أو يقوموا به •

ان الشخص « العامي » هو الذي تتمثل فيه الطبيعة البشرية بأجلى مظاهرها من حيث حبه لذاته وتحيزه العقلي ، وكل ما يهتم به هذا الشخص في أقواله وأفعاله هو أن ينال مديح الناس وارتفاع منزلته بينهم • وبعبارة أخرى : انه منهمك في ذاته لا يعرف غيرها • أما الشخص « المتفرد » فهو وان كان لا يخلو من هذه النزعة بوجه عام غير أنه قد ينسى ذاته أحياناً ، وينسى الناس حوله ، فيندفع في سبيل هدفه الشـاذ كما يندفع العاشـق

الولهان • وهذا هو السبب الذي جعل الناس يصفون « المتفرد » بأنه مجنون • فهم منهمكون في ذاتهم ويتوقعون من غيرهم أن يكون مثلهم في ذلك ، فاذا رأوا شخصاً يشذ عنهم استغربوا منه وألصقوا به تهمة الجنون •

تعجبني في هذا المقام كلمة للامام علي بن أبي طالب هي : « الناس ثلاث : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، والباقي همج رعاع ينعقون مع كل ناعق ويميلون مع كل ريح » •

الانانية والغيرية :

ان الانانية هي الصفة الاساسية في الانسان ، فهو يحب نفسه دائماً ويفضلها على الغير ، ولكننا مع ذلك قد نرى الانسان يضحي بنفسه أو بمصلحته في سبيل الغير أحياناً ، كما تفعل الأم تجاه ولدها ، أو البدوي تجاه قبيلته ، أو المؤمن تجاه دينه ••• الخ •

يمكن القول ان هذه الغيرية التي نراها في الانسان أحيانا ليست غيرية بمعناها الحقيقي ، بل هي أنانية تبدو كأنها غيرية • وبعبارة أخرى : ان الغيرية في الانسان ليست سوى صورة من صور الأنانية أو مستمدة منها •

خذ الأم مثلاً فهي حين تتفانى في سبيل ولدها انما تتفانى في سبيل نفسها من حيث لا تشعر ، ذلك أن ولدها ليس كائناً غريباً عنها بل هو جزء من ذاتها وامتداد لها ، اذ هي تفخر بفخاره وتعتار بعاره ، وكثيراً ما يتعلق مصيرها بمصير ولدها ارتفاعاً أو انخفاضاً •

ومثل هذا يمكن أن نقول عن البدوي تجاه قبيلته ، ولو بدرجة أضعف ، فالبدوي يرمي بنفسه الى الموت في سبيل قبيلته لانه يدرك أن انتصارها انتصار له وهزيمتها هزيمة له ، واذا ذلت قبيلته أو أهينت فلابد أن يصيبه الذل والهوان عاجلاً أو آجلا •

أما المؤمن الذي يموت في سبيل دينه فهو يتوقع أن يلقى بعد الموت ما يعوّضه خير تعويض ، فهو بموته يفقد المنفعة القليلة العاجلة من أجل منفعة كثيرة آجلة • ولكن الملاحظ أن الشهداء في الدين قليلون نسبياً

ذلك لأن اكثر الناس غير مصـدقين بالآخرة تصـديقاً حقيقياً من أعماق نفوسهم ، ولو كانوا مصدقين بها حقاً لتهافتوا على الموت أكثر من تهافتهم على مناصب الدنيا ومغرياتها •

وهناك جانب آخر من هذا الموضوع هو ما نسميه بـ « الجزاء الاجتماعي »• فالانسان كثيراً ما يخدم الغير أو يضحي في سبيله لكي ينال التقدير من الناس وترتفع منزلته بينهم • خذ مثلاً ذلك الشخص الذي يسـمع عن حدوث حريق في محلته وصوت استغاثة تنبعث منه ، فهو يسرع الى النجدة متلهفاً وقد يرمي بنفسه الى النار لينقذ أحداً منها ، وهو اذ يفعل ذلك يتوقع أن ينال التقدير من أبناء محلته بعدئذ ، فيتحدث الرجال في المقهى عن بطولته ، وتروي النساء القصص المثيرة عنه ، واذا مشى في الطريق أشار الناس اليه بالبنان وردوا له التحية بأحسن منها •

ان هذا الذي يفعله الفرد المحلي يفعله كل انسان ، غير أن الناس يختلفون من حيث المظهر الذي يظهرون به أو الوسيلة التي يستعملونها من أجل الحصول على « الجزاء الاجتماعي » • فالمكتشف الذي يرتاد القطب ، والعالم الذي يقضي أوقاته بين الكتب ، والبدوي الذي يغزو ، والشقي الذي يسطو على البيوت ، والشاعر الذي ينظم القصائد العصماء ، كل هؤلاء وغيرهم انما يطلبون « الجزاء الاجتماعي » ، ولكنهم اختلفوا في أعمالهم من جراء اختلاف الدوافع النفسية المسـيطرة عليهم أو الظروف الاجتماعية المحيطة بهم •

الواقع أن للقيم الاجتماعية السائدة في المجتمع أثراً كبيراً في توجيه أفراده نحو عمل ما • فاذا كان المجتمع يقدّر العلماء مثلاً اندفع أكثر أفراده نحو طلب العلم والتنافس عليه ، واذا كان يقدّر الشعراء صار كل فرد راغباً في حفظ الشعر وروايته أو التحدث فيه على أمل أن يكون في يوم من الايام شاعراً مشهوراً ، أو ناقدا للشعر على أقل تقدير •

عندما يفتح الطفل عينه للحياة يسمع الكبار حوله يتحدثون فيمدحون

شخصاً ويذمون آخر ، وهو يصغي الى أحاديثهم فتنغرز في نفسه القيم التي يجري تقدير الأشخاص عليها • فاذا كبر هذا الطفل اجتهد في أن يكون موضع تقدير الناس حسب القيم التي تلقنها في طفولته •

وفي بعض المجتمعات قد يكون هناك نظامان متناقضان من القيم : أحدهما واقعي وهو الذي يجرى تقدير الاشخاص به عملياً ، والآخر مثالي وهو الذي يتواعظ به الناس في خطبهم ومقالاتهم • فينشأ فيهم من جراء ذلك ما نسميه بـ « ازدواج الشخصية » ، حيث نجد الناس هنالك يترنمون بالمثل العليا في أقوالهم بينما هم في أفعالهم يسيرون على الضد منها •

اذا أردنا أن نعرف المستوى الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات وجب أن نغض النظر عما يتواعظ أفراده به من أقوال رنانة ونركز نظرنا على القيم الواقعية التي يجري تقدير الأشخاص بها فيه •

قال أحد علماء الاجتماع : « انظر الى الأشخاص الذين يقدرهم المجتمع تعرف الاتجاه الحضاري السائد في ذلك المجتمع ومصيره » •

الانسان والدين :

ان النفس البشرية تحتاج الى الدين كمثل ما يحتاج البدن الى الغذاء • فالانسان مهدد بالاخطار ومحاط بالمشاكل دائماً وهو اذن في حاجة الى عقائد وطقوس دينية تساعده على مواجهة تلك الاخطار والمشاكل وتبعث الطمأنينة في نفسه ازاءها •

ان الانسان الحديث بدأ يعالج مشاكله والأخطار التي تهدده بالعلم ، ولكنه خلال الدهور الطويلة التي عاشها قبل ظهور العلم الحديث كان يقف تجاه الطبيعة عاجزاً ، وكان مضطراً أن يلجأ الى الطقوس التعبدية على أمل أن تنقذه من الخطر • خذ مثلاً قرية بدائية يثور بقربها بركان مخيف ، فان أهل القرية لا يملكون تجاه البركان سوى القيام بالرقص الجماعي وعمل التعاويذ وتقديم القرابين حسبما تفهمه عقولهم • انهم يتصورون أن البركان شخص مثلهم تؤثر فيه التوسلات وابداء الخضوع والتزلف نحوه •

واذا شاءت الصدفة أن يهدأ البركان بعد قليل أيقنوا أن أفعالهم التعبدية هي التي أنقذتهم من غضب البركان ، وبذا تتحول تلك الأفعال الى طقوس تقليدية مقدسة يتوارثها الأبناء عن الآباء ، وكلما طال عليها الزمن ازدادوا لها تقديساً ٠

مهما يكن الحال فان الدين ليس كله على هذه الشاكلة ، ومن الممكن تصنيف الدين الى صنفين رئيسين هما : الدين الكهاني والدين النبوي ٠ فالذي ذكرناه في أمر البركان ينطبق على الدين الكهاني وهو الدين الذي ليس له مؤسس بل هو ينشأ تلقائياً حيث يبتدعه العامة تدريجاً حسب تطور حاجاتهم النفسية والاجتماعية ٠ أما الدين النبوي فأمره يختلف كل الاختلاف ، وقد يصح أن نصفه بأنه دين ثوري اذ هو يأتي به « نبي » من أجل اصلاح الأحوال السائدة في المجتمع على وجه من الوجوه ٠

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن « النبي » حين يظهر بدين ثوري جديد لابد أن يقاومه المجتمع ، فليس يهون على الناس الذين ورثوا عقيدتهم القديمة عن الآباء ونشأوا عليها أن يروا شخصاً يسعى الى هدمها ٠ انها عقيدة مقدسة في نظرهم ، وهم يعتبرونها أفضل العقائد وأقربها الى العقل ، ولذا فهم يستنكرون الدعوة الجديدة التي يأتي بها « النبي » كل الاستنكار ويتهمونه بشتى التهم ويضطهدونه ويسخرون منه ، وربما قتلوه ٠

وتظل الدعوة الجديدة التي يأتي بها « النبي » في حرب متصلة مع أعدائها فترة من الزمن قصيرة أو طويلة حسب اختلاف الظروف ، فاذا انتصر اعداؤها وقضوا عليها نساها الناس وصارت في حكم الموتى ، وما أكثر الدعوات التي ظهرت في التاريخ ثم ماتت ٠ أما اذا انتصرت الدعوة على أعدائها كان ذلك عاملاً فعالاً في تكاثر أتباعها ، وكلما ازدادت انتصاراتها ازداد عدد الداخلين فيها واشتد تحمسهم لها وايمانا بها ٠

ان الذين يعتنقون الدعوة الجديدة في ايام محنتها قليلون جداً ، أما أكثر أتباعها فهم الذين يعتنقونها بعد انتصارها وهم فريقان : فريق

يعتنق الدعوة بدافع الانتهازية وطلباً للدنيا ، وفريق يعتنقها ايماناً بصحتها اذ هو يعتقد أنها لو لم تكن على حق لما انتصرت • ومما يلفت النظر أن هؤلاء الاتباع قد يضطهدون من يخالف الدعوة الجديدة كما كانوا من قبل يضطهدون أتباعها الأولين •

والمشكلة في كل دين نبوي أنه يتحول الى دين كهاني بمرور الأيام• فالتعاليم التي جاء بها « النبي » كثيراً ما تناقض العادات الاجتماعية السائدة بين الناس ، وهم انما رضخوا لتلك التعاليم في فترة الحماس الأولى عند دخولهم في الدين الجديد ، ولكنهم لا يستطيعون الاستمرار عليها طويلاً ، فهم لابد أن يتحرروا منها ليعودوا الى عاداتهم القديمة أو يطوروا لهم عادات أخرى تحت ضغط ظروفهم المتغيرة •

اعتاد العامة أن يأخذوا من الدين النبوي جوانبه الاعتقادية والتعبدية ، اما الجوانب الاجتماعية منـه ، وهي التي كافح « النبي » في سبيلها ، فهم لا يكترثون لها اذ هي تبقى مسجلة في الكتب يتواعظ الناس بها دون أن يعملوا بها •

ويستفحل هذا الاتجاه لدى العامة حين ينتشر بينهم مبدأ « الشفاعة » ، فتراهم يكذبون ويغشون وينهبون ويعتدون ، وهم في الوقت نفسه يشيدون المساجد والأضرحة ، ويتوسلون بقبور الأولياء ، ويقيمون الولائم والمواكب والمآتم ، اعتقاداً منهم ان الله سيغفر لهم ذنوبهم جميعاً بشفاعة أوليائه الكرام•

الواقع أن لرجال الدين دوراً لا يستهان به في هذا التحول نحو الدين الكهاني ، فهم بحكم وظيفتهم الاجتماعية يسايرون العامة فيما يعملون ، وقد يأتون بالأدلة « العقلية » و « النقلية » لتأييدهم عليه •

يجب أن لا ننسى أن رجل الدين بشر كسائر الناس ، وهو اتخذ الدين له حرفة كما يتخذ غيره أية حرفة أخرى ليرتزق منها • ان حرفة رجل الدين تفرض عليه أن يداري العامة لكي يرضوا عنه ، فرضاهم عنه هو الذي يرفع منزلته من جهة ، ويزيد في رزقه من الجهة الأخرى •

انا نظلم رجل الدين حين نطالبه بأن يكون من دعاة الاصلاح في الدين ، ونحن في هذا كمن يطلب من صاحب دكان أن يقوم بعمل ينفّر الزبائن منه . ان كل دعوة اصلاحية لابد أن يقاومها العامة ويضطهدونها . وقد رأينا في « النبي » مثالاً على ذلك ، واذا أراد رجل الدين أن يقتدي بـ « النبي » في دعوته الاصلاحية فمعنى ذلك أنه يجب أن يسد دكانه ويبوء بالخسارة علاوة على هبوط منزلته بين الناس .

ذكرنا سابقاً أن أكثر الناس « عاميون » في تفكيرهم والنادر منهم من يكون « متفرداً » غير مندفع بتيارهم ، وهذا ينطبق على رجال الدين بشكل واضح ، فالمعروف عن معظم رجال الدين أنهم يجارون العامة في ما يبتدعون من عقائد وطقوس ، ولا نكاد نسمع عن أحدٍ منهم أنه دعا الى اصلاح الا مرة واحدة في كل جيل أو أقل من ذلك !

نلاحظ الكثير من رجال الدين يؤلفون الكتب في انتقاد عقائد الآخرين ، وهم يحسبون أنهم مصلحون . وهذا في الواقع ارتزاق لا اصلاح ، فهم في عملهم هذا انما يبتغون زيادة عدد الزبائن على دكاكينهم. ولو كانوا يقصدون الاصلاح حقاً لبحثوا عن عيوب قومهم ودعوا لاصلاحها بدلاً من البحث عن عيوب الآخرين .

خلاصة القول ان أنانية الانسان تظهر في مجال الدين على نحو ما تظهر في مجالات الحياة الأخرى . وللحسين بن علي كلمة جديرة بأن تُذكر في هذه المناسبة ، حيث قال : « الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم ، فاذا مُحصوا بالبلاء قلّ الديانون » .

التنازع البشري :

التعاون والتنازع صفتان متلازمتان في البشر لا ينفصلان ، فلا يمكن أن يكون البشر متعاونين تعاوناً كلياً لا تنازع فيه ، أو متنازعين تنازعاً كلياً لا تعاون فيه . ان الانسان ليس حيواناً محضاً ولا انساناً محضاً ، بل هو

حيوان وانسان معا ، فهو يميل الى التعاون بدافع كونه انساناً ، ويميل الى التنازع بدافع كونه حيواناً •

الملاحظ في الطفل البشري أنه يميل الى التعاون والتنازع معاً منذ أوائل أيامه ، فهو اذا شاهد قريناً له من الأطفال ابتش له وأنس بصحبته وأخذ يتعاون معه في اللعب • غير أنه لا يستمر على ذلك سوى فترة قصيرة ، ومن ثم نراهما قد تشابكا بالأيدي وحاول أحدهما ضرب الآخر أو اختطاف ما في يده حيث يتركه يبكي دون أن يحسّ بأية شفقة عليه •

الانسان انما يتعاون مع غيره لانه مضطر الى ذلك ، فهو لا يستطيع أن يعيش منفرداً كالحيوان ولابد له من مجتمع يربيه ويساعده على تكوين طبيعته البشرية • فالانسان اذن يتعاون مع الجماعة التي ينشأ فيها وترتبط مصالحه وعواطفه بها ، ولكنه لا يكاد يلمح من بين جماعته أحداً ينافسه أو ينازعه على مصلحة له مادية أو معنوية حتى تنتفض من أعماقه نزعته الحيوانية الأصيلة ، فيكشر عن أنيابه وتبرز مخالبه المخفية •

ان الحياة الاجتماعية تجعل الانسان في اكثر الأحيان مضطراً أن يكتم غيظه ، ويداري خصمه أو يجامله ، فلا ينقضّ عليه كما ينقض الحيوان المفترس على فريسته ، انما هو يود أن يفعل ذلك من صميم قلبه ، وهو يتمنى أن يهاجم خصمه مباشرة لولا خوفه من كلام الناس أو عقاب الحكومة أو الثأر •

مزية الحيوان أنه حين يقوم بعمل يسير نحوه مباشرة ولا يبالي بمن حوله من أفراد نوعه • انه يجري على فطرته دون رياء أو تظاهر أو أية محاولة للتبرير • ولهذا نجد الذئب يهاجم الشاة فيأكلها ويقرمط عظامها ثم يضطجع هادئاً كأنه لم يفعل أمر منكراً • والواقع أن الانسان يحب أن يفعل بخصمه كما يفعل الذئب بالشاة ولكنه لا يقدر على ذلك في أكثر الأحيان لأن المجتمع قد وضع له قواعد وتقاليد وأعراف تمنعه من ذلك • واذا اضطر الانسان الى مهاجمة خصمه أو الانتقام منه فانه يبحث عن حجج

ومعاذير ليبرّر بها فعله أمام الناس ، ونراه عند ذاك يصف خصمه بأبشع الصفات : يضخم معايبه وينكر محاسنه أو يتهمه بأنه خائن للوطن أو مارق عن الدين أو مضر بالمصلحة العامة • وهو يقصد من هذه التهم أن يجد له من بين الناس أعوانا يؤيدونه في ايذاء خصمه أو يسمحون له بايذائه على الأقل •

ان العقل البشري له مقدرة فائقة على ابتكار الحيل والوسائل بشتى أنواعها ، فهو يبتكر الأسلحة التي يقتل بها خصومه ، وهو كذلك يبتكر الحجج والمعاذير التي يبرر بها قتلهم •

يقال ان الانسان لديه « ضمير » يمنعه من أن يكون سبعاً ضارياً كالحيوان المفترس ، ويوصف « الضمير » بأنه الصوت الالهي في الانسان ، وهذا وصف مغلوط اذ المفروض في الله أنه لا يظلم الناس شيئاً بينما نجد « الضمير » كثيراً ما يدفع الانسان الى اقتراف الاعتداءات الفظيعة والمذابح •

ان « الضمير » في الواقع أمر نسبي وهو نتاج القيم الاجتماعية التي ينشأ عليها الانسان أو يؤمن بها بعدئذ • ولهذا رأينا الكثير من الأخيار والزهاد والصالحين يرتكبون أفدح الجرائم تجاه من يخالفهم في العقيدة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً •

سبب التنازع :

ان التنازع بين الحيوانات ظاهرة طبيعية ليست في حاجة الى تفسير أو تعليل ، فالحيوانات انما تتنازع على موارد الغذاء التي هي محدودة ، وهي بتنازعها يهلك منها الضعيف ويبقى القوي ، وبذا يتم التطور البيولوجي عبر ملايين السنين كما هو معروف •

ومن الممكن القول ان البشر انما يتنازعون لنفس السبب الذي تتنازع له الحيوانات • فموارد الطبيعة محدودة ، ولابد للبشر أن يتنازعوا عليها • ولنفرض أن تلك الموارد توفرت بقدرة قادر بحيث أصبحت تكفي البشر جميعاً ، فانهم يظلون يتنازعون على الرغم من ذلك •

مشكلة الانسان ان حاجاته غير محدودة ، وهو في ذلك يختلف عن الحيوان ، فهو كلما أشبع حاجة من حاجاته انبثقت فيه حاجة أخرى • أضف الى ذلك أن الانسان لا يكتفي بالحاجات المادية وحدها ، اذ هو يملك حاجات معنوية علاوة عليها ، وربما كانت حاجاته المعنوية أكثر أهمية من الحاجات المادية في بعض الاحيان • فهو لا يكاد يشبع من الطعام حتى يتطلع الى الغرام والهيام ، أو الى الجاه والرئاسة ، أو الى غير ذلك من المطاليب التي لا تحصى • وتراه لاهثاً وراءها لا يقف فيها عند حد ، فلا يهدأ الا عندما يدركه الموت فيستريح عندئذٍ ويريح •

مما يزيد في حدة التنازع البشري هو ما يتصف به الانسان من تحيز عقلي وتغلف ذاتي • فكل شخص يعتقد أنه أولى من غيره ، أو أفضل ، أو أذكى ، أو اكفأ ، أو أجمل ، ثم يأتي بالحجج التي تؤيده في ذلك • فاذا تنازع مع أحد أيقن أنه هو المحق وأن خصمه لابد أن يكون مبطلاً •

يتضح هذا في قاعات المحاكم وما يجري فيها من خصومات قضائية ، فكل فريق من المتخاصمين يعتقد أن الحق معه ، فاذا حكم القاضي الى جانبه قال عنه انه منصف ، والا فهو جائر غشوم •

وهذا أمر لا يقتصر على الأفراد بل هو موجود بين الجماعات أيضاً • فقد امتلأ التاريخ بأحداث النزاع العنيف فيما بين القبائل ، والمدن ، والاحزاب ، والطوائف ، والدول • وكل فئة من هذه الجماعات تؤمن بان الحق معها وأن الباطل مع خصمها •

قد يسأل سائل : هل يمكن أن يأتي يوم على البشر يزول التنازع عنهم ويسود بينهم التآخي والوئام ؟

الواقع اننا اختبرنا الانسان طيلة الدهور التي عاشها على وجه الأرض فلم نره قد تبدل في طبيعته ، بل بقي كما كان ، على الرغم من تبدل المراحل الاجتماعية التي مر بها • حين ننظر الى أعظم الدول الآن ، وأرقاها حضارة وعلماً ، نجدها تتنازع فيما بينها على منوال ما تتنازع القبائل البدائية • وقد

شهدنا الدول « الراقية » تخوض حربين عالميتين فكانت القسوة التي عاملت كل دولة بها أعداءها لا تقل فظاعة عن قسوة الهمج .

ان الحكومات استطاعت أن تحسم المنازعات التي تنشب بين رعاياها بوساطة أجهزة القضاء والشرطة وما أشبه ، وهذه الأجهزة قد تكون متفسخة أو جائرة ولكن وجودها على أي حال خير من عدمه ، فلولاها لتحوّل النزاع بين الأفراد الى قتال عنيف وأكل بعضهم بعضاً . ويصح أن نقول مثل هذا عن الحروب التي تنشب بين الدول ، فهذه الحروب ستظل مستمرة الى أن تظهر قوة عالمية قاهرة تحكم في منازعات الدول ، وتنفذ حكمها بالقوة ، على منوال ما تفعل الحكومات المحلية في منازعات الأفراد .

ان الدول الآن تعيش في نفس المرحلة التي عاش فيها الأفراد قبل ظهور الحكومات المحلية . فكل دولة تريد أن تأخذ حقها بحد السيف ، وهي تشحذ سلاحها استعداداً للحرب ، ومعنى هذا ان الحرب بين الدول لا تحتاج الا الى شرارة صغيرة لكي تنفجر كما ينفجر مخزن البارود !

ان العقل البشري استطاع أن يبتكر أعجب الاسلحة وأشدها فتكاً ، ولكنه لا يزال في منازعاته يفكر على نمط ما كان عليه الأسلاف الغابرون . وهنا يكمن الخطر الاكبر ! فطبيعة التنازع في الانسان لم تتغير انما تغيرت الاسلحة التي يستعملها الانسان في تنازعه . لقد تحوّل السيف والرمح والسهم في يد الانسان الى طائرات وصواريخ وقنابل نووية . ونحن نخشى أن يبتكر العقل البشري أسلحة أفظع من هذه ثم يظهر في احدى الدول زعيم من طراز هتلر فينسف الكرة الأرضية نسفاً !

لا يجوز أن نثق بالانسان حين نراه ينادي بالعدل أو الحق أو غيرهما من المثل العليا . فهو كما أشرنا اليه من قبل انما ينادي بتلك المثل حين تكون نافعة له ، وهو ينساها حين تكون نافعة لخصمه . فلو ترك البشر من غير قوة قاهرة تفرض السلم عليهم فرضاً لظلوا يتحاربون وهم يعتقدون أنهم يقاتلون في سبيل الحق والعدل .

تركيب الشخصية :

جـرى المفكرون القدماء عـلى التصـنيف الثنائي في حكمهم عـلى الأشخاص ، وكانوا يضعون بين كل صنف ونقيضه حداً فاصلاً لا يجوز تعديه في نظرهم اذ هم يعتبرونه حداً طبيعياً ، فاذا حكموا على شخص بأنه عادل مثلاً وجب أن يكون الشخص عادلاً في جميع أفعاله وأقواله فلا يمكن أن تظهر عليه أية بادرة من الظلم مهما كانت ضئيلة .

ان هذا هو ما يعرف في المنطق القديم بقانون « الوسط المرفوع » أو « الثالث المرفوع » ، وهو قانون كان القدماء يعتقدون أنه من الضرورات العقلية التي لا يجوز الشك فيها . وقد تبين الآن خطأ هذا القانون ومخالفته لواقع الحياة ، فليس هناك صفة محضة في أي انسان بحيث تخلو من نقيضها، ولابد لكل انسان من أن يجتمع فيه النقيضان من كل صفة ، غير أن أحد النقيضين قد تزاد نسبته فيه من حيث تقل نسبة النقيض الآخر .

بطل استعمال قانون « الوسط المرفوع » في البحوث الحديثة وحل محله قانون « التدرج » ، ومعنى هذا القانون ان البشر يتفاوتون في صفاتهم درجياً لا نوعياً ، فاذا أردنا تصنيفهم وجب أن نضعهم على درجات متتابعة حسبما تكثر أو تقل نسبة احدى الصفات فيهم .

خذ مثلاً ما اعتاد الناس عليه من تصنيف الأفراد حسب طول قاماتهم، اذ يقولون : هذا طويل وذاك قصير ، ولكننا في الواقع لو جمعنا عدداً كبيراً من الأفراد ووضعناهم في صف واحد حسب الطول لوجدناهم قد انتظموا بشكل درجي لا يصـح فيه التصـنيف الثنائي ، ففي أقصـى الطرفين نجد أطولهم ، وفي أقصى الطرف الآخر نجد أقصرهم ، أما الباقون فهم عـلى درجات متفاوتة بين ذينك الطرفين .

ان هذا التدرج يصدق على جميع الصفات البشرية كمثل ما يصدق على طول القامة . وأوضح مثل يمكن أن نأتي به في هـذا الصدد هو ما توصلت اليه البحوث النفسية في أمر قياس الذكاء ، فقد ثبت الآن أن

الافراد يتفاوتون في ذكائهم تفاوتاً درجياً كبيراً • فالأوساط من الناس هم الذين تتراوح درجة ذكاؤهم بين السبعين والمائة والأربعين• وهناك المفرطون في ذكائهم الذين قد يتجاوز بعضهم المائتين • وهنـاك في الطرف الآخر المتخلفون عقلياً وهم الذين تهبط درجة ذكائهم دون السبعين قليلاً أو كثيراً •

يجب ان لا ننسى ان البحوث الحديثة كثيراً ما تستعمل التصنيف الثنائي غير أنها تقصد منه معنى غير المعنى الذي يقصده القدماء ، فهي تقصد به تبيان النموذج من كل صفة ونقيضها ، مع العلم أن هذا النموذج ليس له وجود واقعي انما هو افتراض خيالي يراد تصوير الطرف الأقصى من الصفة أو نقيضها •

ان الصفات البشرية كثيرة يصعب حصرها ، وقد تطرقنا الى ذكر بعضها سابقاً عند دراسة الفرق بين الجنون والعقل ، وبين العامية والتفرد ، وبين الفطارة والنضوج • ونستطيع أن نضيف الى هذه صفات أخرى هي التي اعتاد الناس أن يشيروا اليها عند تصنيفهم الاشخاص حيث يميزون بين الطيب واللئيم ، والشجاع والجبان ، والرحيم والقاسي ، والانبساطي والانطوائي ، والكريم والبخيل ، والمتفائل والمتشائم ••• الخ •

ان الصفات البشرية بشتى أنواعها اذ تتجمع في الفرد على نسب متفاوتة تؤدى الى تكوين « الشخصية » فيه • وهذا هو الذي جعل من النادر وجود اثنين من البشر يتماثلان في تكوين شخصيتهما تماثلاً تاماً • فكل فرد من البشر يحمل في شخصيته جميع الصفات كما رأينا ، ولكن الأفراد يختلفون فيما بينهم من جراء اختلاف النسبة الموجودة بين تلك الصفات في كل واحد منهم • ان الشخصية بهذا الاعتبار تشبه المركّب الكيمياوي المعقد ، فأقل تغير في النسبة بين محتوياتها يؤدي الى تغير واضح في طابعها العام •

مما يجدر ذكره أن تركيب الشخصية لا يخضع للمنطق ، بل ان له منطقاً خاصاً به • فقد يكون شخص ما مفرطاً في الذكاء ولكنه في الوقت

نفسه عامي التفكير فطير ، أو قد يكون انبساطياً جداً ومتفرداً • فالناس قد يتعجبون من مثل هذا الشخص اذ هم لا يستطيعون أن يفهموا كيف يجمع في شخصيته هذه الصفات التي هي متعارضة في زعمهم • والواقع أن عدداً لا يستهان به من رجال التاريخ العظام هم من هذا الطراز العجيب غير أن المؤرخين غربلوا أخبارهم ونسقوها بحيث جعلوا صفاتهم منسجمة كلها مع العقل والمنطق •

وهناك نقطة أخرى جديرة بالذكر أيضاً ، هي أن الكثير من الناس قد يقعون في الخطأ حين يفسرون سلوك غيرهم بما يفسرون به سلوكهم حيث يغفلون عن الفرق الكبير بينهم وبين الغير في تركيب الشخصية • فأحدهم مثلاً قد يكون انبساطياً جداً بحيث لا يستطيع أن يستقر بضعة دقائق من غير أن يكون معه صاحب ينادمه ، ولا يتحمل السفر أو التنزه أو تعاطي الخمرة الا برفقة أحد ، وهو يتصور أن الناس كلهم مثله وقد يقسرهم على مرافقته ظناً منه أنهم سيسعدون بذلك كما يسعد هو به مع العلم أن في الناس من هو على النقيض منه اذ لا يستطيع أن يتمتع بوقته الا منفرداً •

خلاصة القول ان شخصية كل انسان فريدة من نوعها لا تماثلها أية شخصية أخرى • وهذه حقيقة ينبغي أن نضعها نصب أعيننا عندما نريد أن نعامل الناس أو نصدر أحكامنا عليهم • وما أكثر الذين جهلوا هذه الحقيقة فاساؤوا الى الناس والى أنفسهم • وقد تتعضل المشكلة حين يكون أحدهم ذا سلطة على الناس ، فهو يشتهي أمراً ويحسب أن الناس كلهم يشتهونه مثله ، وهو قد يقسرهم عليه قسراً فيضرهم من حيث يظن أنه يريد نفعهم •

الخاتمـة :

قد يسأل سائل : لماذا نريد أن نعرف طبيعة الانسان على حقيقتها ، وما الفائدة العملية التي نجنيها من ذلك ؟

الواقع أننا لا نستطيع أن نصلح الانسان أو نعالج مشاكله ما لم نفهم طبيعته التي جُبل عليها • فقد أخطأ المفكرون ألقدماء حين تصوروا الطبيعة البشرية كأنها نتاج العقل ، وتصوروا العقل كأنه موهبة عليا وظيفتها الوصول الى الحقيقة ، وبذلك ظنوا أن في وسعهم اصلاح البشر عن طريق الموعظة والخطابة والنصيحة •

اصطنع اولئك المفكرون مثلا عليا للانسان ، كما فعل افلاطون في جمهوريته ، والفارابي في مدينته الفاضلة ، ثم صاروا يرشدون الناس الى تلك المثل ثقة منهم أن الانسان اذا عرفها واقتنع بها عقلياً أخذ يسعى نحوها ويحققها في نفسه ومجتمعه ، وبذا يتم الصفاء والهناء في العالم بزعمهم •

أخفقت كل المثل التي جاء بها المفكرون القدماء ، فلم يتأثر بها أحد فعلياً ، وظل الناس كما كانوا قديماً يسيرون على نمط ما اعتادوا عليه • واذا تعلم أحد المتحذلقين شيئاً من الفلسفة تعالى على الناس واتخذ تجاههم موقف الواعظ الفاهم وأخذ يلومهم على سوء أخلاقهم وينسب اليهم سبب المصائب التي تحل بهم ، مع العلم أنه في سلوكه الفعلي لا يختلف عنهم •

اذا رأينا فكرة مثالية عالية لا يتأثر بها البشر على توالي الأجيال فينبغي أن نضع اللوم عليها لا على البشر • فالبشر قد جُبلوا على طبيعة معينة لا يستطيعون التحول عنها ، ونحن يجب أن نجعل الفكرة ملائمة للطبيعة البشرية بدلاً من أن نجعل الطبيعة ملائمة للفكرة •

صوّر لنا الفارابي في كتابه « المدينة الفاضلة » مجتمعاً سعيداً يعيش في أتم الصفاء والهناء ، وكان رأيه أن من أهم خصائص هذا المجتمع وجود رئيس صالح فيه ينظم شؤونه ويحكم فيه بالعدل • وقد ذكر الفارابي الصفات المثالية التي يجب أن تتوفر في الرئيس حيث يكون تام الأعضاء فاهماً ذكياً فصيحاً معتدلاً صدوقاً عادلاً قوي العزيمة محباً للعلم معتزاً بكرامته • ان الفارابي لم يقف ليسأل : اين يمكن ان نجد مثل هذا الرئيس

الكامل ؟ واذا وجدناه فكيف يمكن أن نجعل الناس ينتخبونه رئيساً لهم ؟

لنفرض أننا بعد البحث الطويل عثرنا في احدى زوايا الأرض على الشخص الكامل حسبما تخيله الفارابي ، ثم جئنا به نزفه الى الناس اذ نقول لهم : هيا انتخبوه لتسعدوا ! فهل يا ترى سيوافق الناس على رأينا هذا ويسرعون الى انتخاب الشخص الذي رشحناه لهم ؟

ان البشر كما خبرناهم على توالي الازمان لا يمكن أن يتفقوا على رأي واحد ولو جاءهم هذا الرأي من السماء ، فهم لابد أن ينقسموا عليه وقد يتنازعون حوله أو يتقاتلون •

ان الشخص « الكامل » الذي جئنا به اليهم لا يكاد يصل اليهم حتى يظهر تجاهه منافسون يحسبون أنفسهم أفضل منه وأعدل وأذكى ، ثم يحاولون أن يجمعوا حولهم الانصار ، وعند هذا يبدأ الجدال بينهم وربما أدى ذلك الى التشاتم أو التشابك بالأيدي أو التضارب بالسيوف • وقد تنتهي المعمعة بسقوط الشخص « الكامل » على الأرض مضرجاً بدمائه •

ان الفارابي وأمثاله من المفكرين القدماء لا يهتمون بهذه الاحتمالات المتوقعة ، وكأنهم يعيشون في عالم غير العالم الذي يعيش فيه البشر • فهم يضعون الخطة الطوبائية لاصلاح المجتمع ويطلبون من الناس تحقيقها دون أن يقفوا لحظة ليتساءلوا : هل في مقدور البشر تحقيق تلك الخطة عملياً أم لا ؟ !

من المؤسف أن نرى بعض مفكرينا وكتابنا لا يزالون يسيرون في تفكيرهم على هذا النمط من التفكير المثالي ، فهم اذا أعجبتهم فكرة أخذوا يخطبون ويكتبون بحماس في الدعوة اليها ، ولا يبالون عندئذ أن تكون الفكرة منسجمة مع الطبيعة البشرية أم مخالفة لها •

انا اليوم في أشد الحاجة الى اصلاح الأذهان قبل البدء في اصلاح البلاد !